غير مرخصة للطباعة

المحور السابـع

فقه الأمة ودعوتها وصحوتها وحركتها الإسلاميَّة

١١٣

الأمة الإسلامية
حقيقـة لا وهم

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٥

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن النعمان بن بشـــير، قال رسول الله ﷺ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**». متفق عليه.

عن أبي موسى، عن النبيّ ﷺ قال: «**إنَّ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» وشبك أصابعه. متفق عليه.

عن عبـــد الله بـــن عمـــر رضي الله عنهما، أنَّ رســـول الله ﷺ قال: «**المسلم أخو المســـلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فَرَّجَ عن مسلم كربة، فَرَّجَ الله عنه كربة مـــن كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**». متفق عليه.

نسخة مجانية
غير مصرح بها للطباعة

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ربَّنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، وصلاةً وسلامًا على من أرسلتَه رحمةً للعالَمين، وحُجَّةً على النَّاس أجمعين، بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغرِّ الميامين، وعلى من دعا بدعوته، واهتدى بسُنَّته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

(أمَّا بعد)

فمنذ سنوات ثلاث و«مركز الدراسات الحضاريَّة» بالقاهرة يُصدر تقريرًا سياسيًّا موضوعيًّا «الأُمَّة في عام»، وهو تحت عنوان لا شكَّ خطوة إلى الأمام.

وكلمة «الأُمَّة» يمكن أنْ تُطلق على الأُمَّة بالمعنى المحلي: مصر مثلًا، ويمكن أنْ تُطلق على الأُمَّة بمعنى أكبر: المعنى القومي الَّذي يشمل العرب جميعًا؛ فهذا وذاك يدخل في مسمَّى «الأُمَّة» بمعنى الجماعة.

ولكن المعنى الَّذي ينقدح في ذهن المسلم ـ إذا ذُكرت كلمة الأُمَّة ـ هو الأُمَّة الإسلاميَّة، فهو الَّذي يخطر بالبال، ويحضر في العقل؛ لأنَّها

QaradawiBooks.com

الأُمَّة الَّتي ينتمي إليها بحكم إسلامه، وهي الأُمَّة المذكورة في قرآنه وسُنَّة نبيِّه، وتراث حضارته.

ولا غرْو أنْ بدأ التقرير بمصر، ثمَّ ثنَّى بالعرب، ثمَّ ثلَّث بالأُمَّة الكبرى: أُمَّة الإسلام.

ولقد طلب منِّي مدير المركز أنْ أكتب مقدِّمة لهذا التقرير الَّذي يتحدَّث عن الأُمَّة المسلمة، فكتبت كلمةً طالت نسبيًّا، موضوعها: «الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة لا وهم»، وقلتُ للإخوة المسؤولين في المركز: تستطيعون أنْ تأخذوا منها ما يروقكم، وتحذفوا الباقي، ولا حرج عليكم. ولكنَّهم ـ جزاهم الله خيرًا ـ نشروها بكاملها.

ولقد قرأها كثيرون وعبَّروا عن سرورهم بها لما لمسوه من قوة المنطق الَّذي يعرض لقضية من أهم قضايانا وأخطرها، وهي قضية وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة، وموقع الخلافة منها، وأمل الأُمَّة في عودتها، وحكم الشرع في غيبتها.

ولكنِّي فوجئت بما كتبه الأستاذ سيِّد ياسين مدير مركز الدراسات السياسيَّة والإستراتيجيَّة بصحيفة «الأهرام» منتقدًا بشدَّة ما كتبت، معتبرًا ذلك حلمًا من أحلام الفقهاء! لا يمتُّ إلى الواقع بصلة! وهبْه حلمًا، أفحرامٌ علينا أنْ نحلم كما يحلم الآخرون في عالَمنا؟ وقد حلم آخرون من قبل بما هو أبعد عن الواقع من هذا الحلم وحقَّقوا أحلامهم.

وقد اضطررتُ أنْ أردَّ على الأستاذ ياسين في الصفحة نفسها بالأهرام، وإنْ حذفوا بعض الفقرات من ردِّي ـ ربَّما بسبب المساحة ـ ممَّا أحسب أنَّه لا يمسُّ الجوهر. ثمَّ عاود الأستاذ الكتابة تعقيبًا على ردِّي، فكان لا بدَّ من ردٍّ على الردِّ، وأغلقت الموضوع.

QaradawiBooks.com

وهأنذا أنشـــر الموضوع كلَّه على القُرَّاء، رجاء أنْ ينتفع به من شرح الله صدره للحقِّ، وبخاصة أنَّ أكثر الَّذين تابعوا هذه المساجلة لم يقرؤوا مقالتي الأصلية، حيث إنَّ التقرير يوزع في نطاق محدود.

اللهم أرنا الحـــقَّ حقًّا وارزقنـــا اتباعه، وأرنا الباطـــل باطلًا وارزقنا اجتنابه، آمين.

يوسف القرضاوي

القاهرة: ربيع الأوَّل سنة ١٤١٥هـ

سبتمبر ١٩٩٤م

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة لا وهم

يقول الإمام الراغب الأصفهاني في «مفردات القرآن»:

«الأُمَّة: كلُّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما، إمَّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعها: أمم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ أي كل نوع منها على طريقة قد سخَّرها الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسرفة[١]، ومُدَّخِرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع الَّتي تخصص بها كل نوع»[٢].

وفي الحديث: «**لولا أنَّ الكلاب أُمَّةٌ من الأمم لأمرت بقتلها**»[٣]، وفيه دلالة على وجوب المحافظة على الأجناس من الانقراض.

---

(١) السُّرفة: دويبة غبراء تبني بيتًا حسنًا تكون فيه، وهي التي يُضرب بها المثل فيقال: «أصنع من سُرفة».

(٢) مفردات ألفاظ القرآن صـ ٨٦، تحقيق صفوان عدنان داوودي، نشر دار القلم، دمشق، ط ٤، ١٤١٢هـ.

(٣) رواه أحمد (١٦٧٨٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الصيد (٢٨٤٥)، والترمذي في الأحكام (١٤٨٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٢٢)، عن عبد الله بن مغفل.

QaradawiBooks.com

وقد وردت كلمة «أُمَّة» في القرآن بمعنى الجماعة من النَّاس في (٤٤) موضعًا، منها قوله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

ويقول صاحب «القاموس المحيط»: «الأُمَّة: كلُّ جماعة أُرسل إليهم رسول سواء آمنوا أو كفروا»[(١)].

وينقل «اللسان»[(٢)] و«التاج» عن الليث: «كلُّ قومٍ نُسبوا إلى نبيٍّ فأضيفوا إليه فهم أُمَّته، ولهذا قيل: أُمَّة محمَّد ﷺ... وبهذا اعتبروا عنصر الدين في تكوين الأُمَّة وتميُّزها أمرًا أساسيًّا».

بل قال بعض اللغويِّين: الأُمَّة هي الدِّين. وقال الزجَّاج في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: كانوا «على دين واحد»[(٣)]، ويقال: فلان لا أُمَّة له؛ أي لا دين له ولا نحلة. قال الشاعر:

وهل يستوي ذو أُمَّةٍ وكَفُورُ؟!

وقال الأخفش في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ أي خير أهل دين[(٤)].

وإذا صحَّ قول من قال: كلُّ من بُعث إليهم رسول من الرسل فهم أُمَّة له، وكان محمَّد ﷺ إلى النَّاس كافة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ

(١) القاموس المحيط للفيروزآبادي مادة (أ. م. م).
(٢) لسان العرب لابن منظور مادة (أ. م. م).
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٨٢/١)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، نشر عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
(٤) انظر: تاج العروس شرح القاموس، مادة: (أ. م. م).

QaradawiBooks.com

﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]: كان العالَم كله ـ بشرقه وغربه وعجمه وعربه ـ أُمَّة محمَّد ﷺ.

وهذا صحيح بالنظر إلى أُمَّة الدعوة، فالمسلمون متَّفقون على أنَّ أُمَّة محمَّد تشمل النَّاس جميعًا، ولكنَّهم اتَّفقوا كذلك على تصنيف هذه الأُمَّة أو تقسيمها إلى قسمين:

الأوَّل: أُمَّة الإجابة، والمقصود بها كل من استجاب لدعوة محمَّد ﷺ، وآمن به ودخل في دينه.

والثاني: أُمَّة الدعوة، وتشمل سائر العالم بعد ذلك.

وأُمَّة الإجابة هي المقصودة إذا قيل: الأُمَّة المسلمة، أو الإسلاميَّة، أو أُمَّة الإسلام، أو أُمَّة محمَّد، أو ما شابه ذلك من العبارات. بل هي المقصودة بكلمة «الأُمَّة» عند الإطلاق.

والمهمُّ الآن أنْ نُبيِّن بوضوح: هل توجد أُمَّة مسلمة حقًّا أو أنَّ هذا وهم اخترعه علماء الإسلام ودعاته، ولا ظِلَّ له في الواقع؟

وممَّا لا نزاع فيه: أنَّ المسلمين ـ الَّذين رضوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن كتابًا، وبمحمَّد ﷺ نبيًّا ورسولًا ـ موجودون، ويزيدون على البليون عدًّا[1]، إنَّما النزاع والخلاف: هل يكونون أُمَّة أو لا؟

والحقُّ الَّذي لا ريب فيه: أنَّ هذا السؤال لم يدُر بخَلَدِ مسلم طَوَال القرون الماضية، قبل عصر الاستعمار الثقافي أو الغزو الفكري لعالم الإسلام.

(١) أحدث الإحصاءات ـ عند صدور الكتاب ـ أنَّ المسلمين في العالم بلغوا ـ وربما جاوزوا ـ البليون وربع البليون، أي (١٢٥٠) مليونًا من البشر.

QaradawiBooks.com

فقد كان من البديهيَّات والمسلَّمات الأوَّليَّة عند المسلمين، خاصَّتهم وعامَّتهم، عربهم وعجمهم، في كلِّ بقــاع الأرض: أنَّهم أبناء أُمَّة واحدة هي أُمَّة الإسلام، حتَّى غزتهم فكرة العصبيَّات الإقليميَّة والقوميَّة، وهي فكرة مســتوردة من أرضٍ غير أرضهم، وتراثٍ غيــر تراثهم، فأرادت أن تجعل الأُمَّة الواحدة أُمَمًا تتنافس، بل تتجافى، بل تتعادى، بل تتقاتل.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة بكلِّ معيار

ومع هذه المحاولات الغازية نستطيع أنْ نقول: إنَّ «الأُمَّة» باقية، لم تمُت، ولن تموت، وهي حقيقة لا وهم، هي حقيقة بمنطق الدِّين، حقيقة بمنطق التاريخ، حقيقة بمنطق الجغرافيا، حقيقة بمنطق الواقع، حقيقة بمنطق المصلحة، حقيقة بمنطق الآخرين.

هي حقيقة بمنطق الدِّين:

الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة بمنطق الدِّين؛ فالقرآن الكريم هو الَّذي اعتبر المسلمين «أُمَّة» بل «أُمَّة واحدة»، ولم يعتبرهم «أُمَمًا». وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وفي السُّنَّة النبويَّة أحاديث جمَّة تتحدَّث عن الأُمَّة مضافة إلى النبيِّ ﷺ أو معرَّفة بالألف واللام، منها قوله: «**مَثَلُ أُمَّتي كالمطر، لا يُدرى أوَّلُه خيرٌ أم آخره**»[1]، «**لا تزال طائفة من أُمَّتي قائمين على**

(١) رواه أحمد (١٢٣٢٧)، وقال مُخرِّجوه: حديث قويٌّ بطرقه وشواهده. والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩)، وقال: حسن غريب. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٢٨٦)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

الحقِّ»[١]، «فُضِّلَتْ هذه الأُمَّة على سائر الأمم»[٢]، «كلُّ أُمَّتي يدخلون الجنَّة إلَّا من أبى»[٣]، «إنَّ الله لا يجمع أُمَّتي على ضلالة»[٤].

ومن تتبَّع ما ورد في «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي» وجد الكثير الكثير.

هي حقيقة بمنطق التاريخ:

والأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة كذلك بمنطق التاريخ، فقد ولدت هذه الأُمَّة مع الإسلام، ونمت بنمُوِّه واتَّسعت بانتشاره، وحملت مواريث رسالات السماء، وقيم حضارات الأرض، وظلَّت هي الأُمَّة الأولى في العالم قرابة ألف عام، امتدت فيها إلى الصين شرقًا، والأندلس غربًا، يحكمها خليفة واحد في معظم الأحيان، أو أكثر من واحد في بعض الأحيان، أو ينشقُّ

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، عن معاوية. وصحَّت من حديث عمر، والمغيرة، وثوبان، وأبي هريرة، وقرة بن إياس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وعقبة بن عامر، وجابر بن سمرة، وأبي أُمامة. ينظر: الأحاديث من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦)، ومن (٧٧٠١) إلى (٧٧٠٤) من صحيح الجامع الصغير وزيادته.

(٢) رواه مسلم في المساجد (٥٢٢)، وأحمد (٢٣٢٥١)، عن حذيفة.

(٣) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة (٧٢٨٠)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٧)، وقال: غريب من هذا الوجه. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨)، وضعَّفه النووي في شرح مسلم (٦٧/١٣)، ورواه الحاكم في العلم (١١٥/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧/٣)، وقال: غريب من حديث سليمان عن عبد الله بن دينار، لم نكتبه إلَّا من هذا الوجه. وقال المناوي في فيض القدير (٣٤٤/٢): قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في تخريج المختصر: حديث غريب خرجه أبو نعيم في الحلية واللالكائي في السنة، ورجاله رجال الصحيح لكنَّه معلول، فقد قال الحاكم: لو كان محفوظًا حكمت بصحته على شرط الصحيح، لكن اختلف فيه على معتمر بن سليمان على سبعة أقوال، فذكرها وذلك مقتضٍ للاضطراب والمضطرب من أقسام الضعيف. وقال السخاوي في المقاصد صـ ٧١٦: بالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره. عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

عنها بعض أصحاب النزعات الانفصاليَّة، اتِّباعًا لهوى، أو تحقيقًا لكسب خاصٍّ، أو استجابةً لكيد عدوٍّ ماكر.

ولكنْ برغم هذه النتوءات لم يزايل أبناءها الشعور العام بأنَّهم أُمَّة واحدة، وأنَّ مصيرهم واحد، وأنَّ عدوَّهم واحد، وأنَّ مصلحتهم واحدة، وأنَّ خلاصهم في الاتِّحاد والتضامن، وهلاكهم في الاختلاف والتفرُّق والتنازع، وهو ما حذَّر منه كتابهم وسُنَّة نبيِّهم، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وفي الصحيح: «**ولا تختلفوا؛ فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»[1].

وهكذا عاش المسلمون لا يعرفون جنسية إلَّا الانتماء إلى الإسلام، وقانون «الجنسية» الحديث لم يعرفه المسلمون إلَّا منذ نحو سبعين عامًا.

إنَّ الَّذي ثأر لمصر وكرامتها من جيش نابليون الَّذي اقتحم بخيله الأزهر، كان طالبًا أزهريًّا من حلب، هو «سليمان الحلبي»، والَّذي أيقظ الشرق العربي، وأوقد فيه الشرارة ضد الاستعمار رجل قدم من أفغانستان، هو «جمال الدين الأفغاني»، وقبل ذلك الَّذين قادوا معارك التحرير لطرد الصليبيِّين وإنقاذ القدس الشريف، لم يكونوا عربًا، بل منهم التركي مثل «عماد الدِّين زنكي»، وابنه «نور الدين»، أو الكردي مثل «صلاح الدين الأيوبي».

هي حقيقة بمنطق الجغرافيا:

وهي حقيقة بمنطق الجغرافيا، فالأُمَّة الإسلاميَّة تعيش في أقطار متَّصلة متشابكة، بعضها موصول ببعض، من «جاكارتا» شرقًا إلى «رباط

(١) رواه البخاري في الخصومات (٢٤١٠)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

الفتح» غربًا، أو من المحيط إلى المحيـــط، أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي.

ومن رأى خارطة للعالَم الإســـلامي وجد «اللـــون الأخضر» ـ الَّذي يرمز إلى العالَم الإســـلامي، أي البلاد ذات الأغلبيَّة المســـلمة ـ متَّصلًا متماسك الحلقات، وذلك أنَّ امتداد الإسلام كان امتدادًا طبيعيًّا، يدخل البلد فيؤثِّر فيما حوله ومَن حوله يمنةً ويسرة، ثمَّ ينتشر انتشار نور الفجر في الغسق ما شاء الله له أنْ ينتشر فيما يحيط به وما يجاوره شيئًا فشيئًا، حتَّى يعوقه عائق ما فيتوقَّف حتَّى تتاح له فرصة أخرى.

إنَّ دار الإسلام على سعتها وتعدد أقطارها، تمثل وطنًا واحدًا مترابط الأجزاء، وتكاد الحدود السياسيَّة بين بلدانه كلها تكون مصطَنعة، وجلُّها من صنع الاستعمار الَّذي فرض التجزئة والتشرذم على دار الإسلام منذ احتلاله لها، وكان ذلك أكبر همِّه، ورأس طموحاته. ومن هنا كان وجود إسرائيل جسمًا غريبًا في كيان الأُمَّة، وحاجزًا مصنوعًا بين شرقها وغربها.

هي حقيقة بمنطق الواقع:

وهذه الأُمَّة حقيقة بمنطق الواقع؛ فالذي يقرأ واقع المســـلمين بعمق يدرك ـ إن كان منصفًا ـ أنَّ الشـــعور بوجود الأُمَّة ووحدتها، والإحساس بآلامهـــا وأفراحها، شـــعور ســـائد ومتغلغل فـــي كيان أبنائهـــا وأعماق وجدانهم، وخصوصًا في أوقات الشـــدائد والمحن، فهي الَّتي تكشـــف الدفين، وتبرز المكنون.

لا أتحدَّث عن الحكام والمتســـلطين، وعبيد الفكـــر الغربي، ممَّن انفصلوا عن ضمير أُمَّتهم، وغرَّب الاســـتعمار الثقافي مشـــاعرهم، كما

QaradawiBooks.com

غرَّب أفكارهم، إنَّما أتحدَّث عن جمهور الأُمَّــة العريض، من المثقفين وغير المثقَّفين الَّذين يخِفُّون لنجدة كلِّ منكوب، ومساندة كلِّ مستضعَف، ومعاونة كلِّ ذي فاقة من أبناء الإسلام حيثما كانوا.

رأيناهم يتحرَّقون من أجل المسجد الأقصى، ويفرحون ويمرحون إذا حقَّقت الانتفاضة نصرًا، ويحزنون ويبكون إذا مسَّ رجالها قرح، رأيناهم يتجاوبون مع أبناء البوســنة والهرســك، يتبرَّع الرجال بالمال، والنساء بالحلي، ويطالب الشــباب بالســماح له بالذهاب إلــى أرض المعركة للمشــاركة في الجهاد، وتشــتعل القلوب نارًا كلَّما ســمعت باغتصاب المسلمات، أو قتل المدنيِّين العزل.

وقــد حكى لي بعض الإخــوة في هيئــة الإغاثة بأوربــا: أنَّ بعض المسلمين جاؤوهم بتبرُّعات عينيَّة ونقديَّة للبوســنة، ثمَّ طلبوا منهم أن يعلِّموهم الوضوء والصلاة، فلم يســبق لهم أنْ دخلوا مسجدًا قطُّ، إنَّما حرَّكهم ما شاهدوا في التلفاز من عدوان على حرمات إخوانهم!

في يونيو ـ أو حزيران ـ ســنة ١٩٦٧م عقب النكبة الشهيرة، فُتح في قطر باب التطوع من أجل فلسطين، فكان أكثر النَّاس حماسًا، وأسرعهم إلى الاكتتاب: هم الإخوة الباكســتانيون وفي مقابل هذه وجدنا الإخوة العرب يشاركون إخوانهم في أفغانســتان، حين دعا داعي الجهاد باسم الإســلام، بل شــارك معهم أفارقة وأوربيون وأمريكيون ممَّن شرح الله صدورهم بنور الإسلام.

إنَّ الخطباء فــي كلِّ جمعــة يدعــون الله تعالى، ويســألونه النصر والتمكين، وصلاح الحال لبلادهم وبلاد الإســلام كلِّهــا. ومن الأدعية المتوارثة: «اللهم اجعل بلدنا هذا آمنًا مطمئنًّا ســخاءً رخاءً، وسائر بلاد المسلمين»، ومنها: «اللهم انصر الإسلام، وأَعِزَّ المسلمين».

QaradawiBooks.com

هي حقيقة بمنطق الآخرين:

بل نقول: إنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة واقعة بمنطق أعداء المسلمين أنفسهم، فإذا كان من أبناء المسلمين، والمسمَّين بأسمائهم: من يجهل هذه الحقيقة، أو يتجاهلها، أو يحاول طمسها وجحودها لهوى في نفسه، فإنَّ خصوم هذه الأُمَّة يعرفون هذه الحقيقة حق المعرفة، وينظرون إلى المسلمين باعتبارهم أُمَّة ذات عقيدة واحدة، وفلسفة كلِّيَّة واحدة، وقيم أساسيَّة مشتركة، وأصول فكريَّة وخلقيَّة جامعة، وتطلعات طموحة متلاقية.

ولهذا لا يلتفتون كثيرًا إلى التقسيمات السياسيَّة الَّتي صنعوها هم، ولا إلى الخصوصيات القوميَّة، والاختلافات الإقليميَّة، والصراعات السياسيَّة، والنزاعات الحدوديَّة، وغيرها، ممَّا يعلمون أنَّ لهم في تأجيجه ـ بل في تكوينه في الأصل ـ يدًا لا تنكر، إنَّهم يعلمون أنَّ «روح الأُمَّة» شيء أعمق من هذه القشرة الظاهرية.

إنَّه شعور عميق بوجودها وخلودها ووحدتها ورسالتها، وهم يدركون جيدًا وجود هذا الشعور وتناميه يومًا بعد يوم، كلَّما عمَّت اليقظة، وعمقت الصحوة، وارتفعت راية الدعوة، إنَّهم لهذا يكيدون للصحوة في الشرق، ويعوقون مسيرتها في الغرب، حتَّى إنَّ تمسُّك بعض التلميذات في مدرسة ما بالتزام الحجاب ليزلزل كيانهم، ويؤرق أجفانهم، وإنَّ إنشاء «كلية أوربية للدراسات الإسلاميَّة» ليزعج كبارهم، ويروع صغارهم، وإنَّ استقلال بلد مسلم صغير مثل «البوسنة» لم يكن أكثره يعرف من الإسلام إلَّا الشهادتين ليفزعهم، ويخلع قلوبهم، حتَّى أجمعوا أن يتعاونوا على إبادته كي لا يرتفع علم للإسلام في أوربا، بعد أنْ طرد

QaradawiBooks.com

منها مرَّتين: مرَّة من الأندلس، ومرة من البلقان، حتَّى صرَّح زعيم روسي يميني في هذه الأيام هو «جرينوفسكي» بأنَّ ما يقوم به الصرب «حرب مقدَّسة»!

من أجل هذا تنادَوْا بالوقوف في وجه ما سموه «الخطر الأخضر» يعنون به الإسلام، بعد أنْ انزاح «الخطر الأحمر» بانهيار الاتِّحاد السوفييتي، وسقوط الشيوعيَّة الماركسيَّة في دولتها الأمِّ، وفي أوربا الشرقيَّة، وبعد زوال «الخطر الأصفر» بالتقارب مع الصين، وليس هذا الأمر بجديد، فقد حذروا من هذا الخطر من قديم.

ومن أوضح الكلمات المعبِّرة عن هذه الرُّوح المتوجِّسة من قوة الإسلام ما نقله مؤلفا كتاب «التبشير والاستعمار» عن بعض الأوربيِّين: «لقد كُنَّا نخوف بشعوب مختلفة، ولكنَّا ـ بعد اختبار ـ لم نجد مبررًا لهذا الخوف. لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي، وبالخطر الأصفر، وبالخطر البلشفي «الشيوعي»، إلَّا أنَّ هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيَّلناه، إنَّنا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد... ثمَّ رأينا أنَّ البلاشفة حلفاء لنا، أما الشعوب الصفراء، فهنالك دول ديمقراطيَّة كبرى تقاومها، ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قوته على التوسع والإخضاع، وفي حيويَّته، إنَّه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي»[1].

إنَّهم لا ينظرون إلى واقع المسلمين المجزَّأ بالفعل، بل إلى الكيان الواحد القائم بالقوَّة، الكامن في أعماق القلب والوجدان.

(١) التبشير والاستعمار للدكتورين عمر فروخ ومصطفى الخالدي صـ ١٨٤، نشر المكتبة العصرية، بيروت، ط ٥، ١٩٧٣م.

QaradawiBooks.com

منطق المصلحة والعصر:

على أنَّه لو لم يفرض علينا منطق الدِّين والتاريخ والجغرافيا والواقع ونظرة الآخرين إلينا أنْ نكون أُمَّة بالفعل، لوجب علينا ـ تبعًا لمنطق المصلحة، ومنطق عصرنا نفسه ـ أنْ نخترع لنا أُمَّة كبرى، نتكثَّر بها، وننضمُّ إليها، ونحتمي بحماها، فمصلحتنا العليا توجب أنْ نبحث لنا عن تكتُّل كبير، نستكثر به من قلَّة، ونعتزُّ به من ذِلَّة، ونقوى به من ضعف، ونأمن به من خوف، كما قيل:

أَلَمْ تَرَ أنَّ جَمْعَ القَوْمِ يُخْشَى وأنَّ حَرِيمَ وَاحِدِهِم مُبَاحُ[1]؟

إنَّ التكتُّل ضرورة عسكريَّة، حتَّى لا يؤكل المسلمون بلدًا بلدًا، كما يلتهم الرغيف لقمةً لقمة.

تَأْبَى الرِّمَاحُ إذا اجْتَمَعْنَ تَكَسُّرًا وإذا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ أَفْرَادًا[2]

وهو ضرورة اقتصاديَّة، لأنَّ الإنتاج الصغير لا يستطيع أن ينافس أو يصمد أمام الإنتاج الكبير، ومن المستحيل أن ندخل عصر التكنولوجيا المتطورة فرادى مبعثرين، فإنَّ تكلفتها هائلة، ولا يتحمَّلها قُطر واحد، وقد رأينا الدول الصناعية تتعاون فيما بينها لإنتاج طائرة متطورة، ذات إمكانات خاصة. ولهذا قلنا: إنَّ منطق عصرنا يفرض على المتشابهين أنْ يتَّحدوا ويتكتَّلوا، وإلَّا سحقتهم الكُتَل الكبيرة من حولهم، فلا مكان في عالَم اليوم للصغار والضعفاء.

---

(١) القائل: ناهض الكلابي، كما في الدر الفريد وبيت القصيد لابن أيدمر المستعصمي (١٦٣/٤)، تحقيق د. كامل سلمان الجبوري، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

(٢) ذكره من غير نسبة ابن عرب شاه في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء صـ ٧٩، تحقيق أيمن عبد الجابر البحيري، نشر دار الآفاق العربية، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

إنَّ العالَم يتكتَّل اليوم في أشكال مختلفة، يكمل بعضها بعضًا في شكل تجمُّعات اقتصاديَّة كبرى، وكثيرًا ما تتحول هذه التجمعات الاقتصاديَّة إلى تجمعات سياسيَّة، فقلَّما ينفصل الاقتصاد عن السياسة.

لقد قيل قديمًا: من لم يكن له أهل فليصطنع أهلًا، أي عن طريق المصاهرة أو الحلف ونحوه، ونحن لنا أهل والحمد لله، وأهلنا هم أُمَّة الإسلام، فلا مناص لنا من أنْ نتكتَّل؛ حتَّى نحافظ على وجودنا، ونعمل على تطوير أنفسنا، وهذا التكتُّل لم يعد نافلة، بل تأكَّد أنَّه فريضة، بل هو كما أقول دائمًا: فريضة وضرورة، فريضة يفرضها الدِّين، وضرورة يُحَتِّمها الواقع.

لقد أثبتت محنة الخليج وما صحبها من آثار مدمِّرة لمادِّياتنا ومعنوياتنا، أنَّنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ نعاني في حياتنا خللًا قاتلًا، ونشكو فراغًا هائلًا، وأنَّ هذا الخلل يجب أنْ يُسَد، وأنَّ هذا الفراغ يجب أنْ يُملأ، وإلَّا واجهتنا الأزمات الكبرى الَّتي لا نجد لها حلًّا.

ذلك أنَّ أساس المشروعيَّة لدولنا الإقليميَّة والقوميَّة، الحديثة المعاصرة، الَّتي تضمُّها جامعتنا العربيَّة، أو ينتظمها ما سُمِّي «منظَّمة المؤتمر الإسلامي» أساس واهٍ ضعيف، من وجهة النظر الإسلاميَّة الخالصة، وفي أوَّل تجربة أو امتحان، اهتزَّ هذا الأساس، بل أوشك أنْ ينهار، لأنَّه يفتقد المشروعيَّة العقائدية العليا الَّتي تسنده، وتمنحه مبرر الوجود والبقاء.

لقد كان للمسلمين خليفة يناديهم في الأزمات أنْ هبُّوا، وكان يستنصر به المستضعفون إذا أُغير عليهم، ويَحْسب حسابه الخصوم إذا فكَّروا في اقتحام حماهم.

QaradawiBooks.com

واليوم لم يعد لهم خليفة يمثِّلهم، ولا لهم «بابا» كـ «بابا النصارى»، فلا قيادة سياسيَّة، ولا قيادة دينيَّة. لقد ضيَّع المسلمون الخلافة، ولم يستطيعوا أنْ يوجدوا نظامًا بديلًا، والعيب هنا عيب المسلمين، لا عيب الإسلام، فالإسلام قد وحَّد الأُمَّة، وشرع لها ما يُحقِّق وحدتها ويصونها.

* * *

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

أُمَّة واحدة ذات شعوب متعدِّدة

المسلمون ـ في نظر الدين ـ أُمَّة واحدة، ذات شعوب متعدِّدة بتعدد الأجناس واللغات والأوطان، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وتعدُّد الشعوب في الأُمَّة المسلمة لا يجعل منها مشكلة إذا كان الإسلام هو الموجِّه لها، والحاكم لتصرفاتها، فالإسلام يذيب الفوارق بين هذه الشعوب، بعقائده وقِيَمه وأحكامه وآدابه، ويصهر الجميع في بوتقته، ويكون اختلافهم في هذا الحال اختلاف تنوع وإثراء لا اختلاف تضادٍّ وتصارع، فإنَّ ولاء الجميع لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين، واعتزاز الجميع بالدين الَّذي أكرمهم الله به، وارتضاه لهم منهاجًا، وارتضاهم له جنودًا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ولا ينبغي أنْ يضيق الوطنيُّون والقوميُّون المخلِصون بالانتماء إلى الأُمَّة الإسلاميَّة، فإنَّ الانتماء إلى الأُمَّة الكبرى لا يلغي الانتماء إلى الأوطان أو الأقوام، ولا يُنكِر الإسلام حبَّ الإنسان لوطنه، أو قومه، فهذا أمر فطري؛ والإنسان ينتمي إلى دوائر متعددة تتداخل وتتكامل ولا تتناقض.

وقد كان الصحابة ينتمون إلى أقوامهم وقبائلهم بلا حرج، فسلمان

الفارسي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وآخرون: قرشي وأوسي وخزرجي وغفاري ودوسي؛ إلخ.

وقد قلتُ في ندوة «الصحوة وهموم الوطن العربي» في عمان (سنة ١٩٨٧م): إنَّني أنتمي في وقت واحد إلى عدَّة دوائر، لا أجد بينها أيَّ تضادٍّ، فأنا أنتمي إلى أسرتي «القرضاوي»، وإلى قريتي الصغيرة «صفط تراب»، وإلى محافظتي «الغربيَّة»، وإلى وطني الصغير «مصر»، وإلى وطني الكبير «بلاد العرب»، وإلى وطني الأكبر «دار الإسلام». فأنا قرضاوي، صفطاوي، غرباوي، مصري، عربي، مسلم. وأنا كذلك أزهري بحُكم دراستي، جامعي بحُكم مِهْنتي، إفريقي بحكم قارتي، إسلاميٌّ بحكم وجهتي، عالميٌّ بحكم رسالتي، ولا تنافي بين هذا كلِّه، ولا تناقض بين الوطنيَّة والقوميَّة والإسلاميَّة والعالميَّة إذا وُضِع كلٌّ منها في موضعه الصحيح، إنَّما تُرفض الوطنيَّة والقوميَّة إذا جعلناها بديلًا عن الإسلام، أو طعَّمناها بعناصر غريبة عنها معادية للإسلام، أو مناقضة لعقيدته أو شريعته، مثل «العِلمانيَّة» و«الماركسيَّة»، وهذه وتلك ليست عنصرًا من عناصر تركيب الوطنيَّة ولا القوميَّة، فإنَّ كلتيهما لا تتضمن محتوى أيديولوجيًّا معيَّنًا.

والانتماء إلى الأُمَّة الإسلاميَّة يستوعب المسلمين وغير المسلمين، فهم جميعًا من أهل دار الإسلام كما يقرِّر الفقهاء، وهذا ما فهمه الوطنيُّون المخلصون من أهل الكتاب مثل الوطني المعروف «مكرم عبيد» في مصر الَّذي قال: أنا نصرانيٌّ دينًا مسلمٌ وطنًا، وهذا ما قلته للدكتور «لويس عوض» حين طلب مِنِّي التعقيب على كلمته عندما زار قطر منذ سنوات. قلت له: أنت مسلمٌ بحُكْم الثقافة والحضارة، وإنْ لم تكن مسلمًا بحُكْم الدِّين والعقيدة.

QaradawiBooks.com

إنَّ الإسلامي الحقَّ: وطنيٌّ مخلِص، وقوميٌّ مناضل، وعالميٌّ أصيل، وأبطال الوطنيَّة الأوائل في بلادنا كانوا إسلاميِّين، مثل الأمير عبد القادر في الجزائر، وأحمد عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد في مصر، وعمر المختار في ليبيا، وعبد الكريم الخطَّابي في المغرب، وأمين الحُسَيْني في فلسطين، ومحمد ناصر في إندونيسيا، وأبو الكلام آزاد في الهند، وغيرهم وغيرهم.

صلة العروبة بالإسلام:

وللعروبة ـ خاصَّة ـ صلة وثيقة بالإسلام؛ فهي وعاء حضارته، ولسان ثقافته، ولغة عبادته، ودار مقدساته، ومثوى نبيِّه، ومنطلق دعوته إلى العالَم، والعرب هم عصبة الإسلام، وحَمَلَة رسالته الأوَّلون، ونَقَلَة قرآنه، ورُوَاة سُنَّته، ومعلمو الأُمم الَّتي دخلت مختارة في دِينِ الله.

وفي مصر وبلاد المغرب العربي كلِّه، لا يُفرِّق النَّاس بين العروبة والإسلام، ولا بين العرب والمسلمين، وإذا قال الخطيب في المسجد: اللهمَّ انصُرِ العرب، فهي تساوي: اللهمَّ انصُرِ المسلمين، والعكس كذلك. وقد عبَّر عن هذا الشاعر المصري محمود غنيم رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله:

إنَّ العُرُوبَةَ لَفْظٌ إنْ نَطَقْتَ به ... فالشَّرْقُ والضَّادُ والإسْلَامُ مَعْنَاهُ[1]

كلمات مضيئة لحسن البنَّا:

ولم أجد في المجدِّدين الإسلاميِّين مَن فقه هذا المعنى، وعبَّر عنه بغاية الوضوح في بيان مقنع ورائع، مثل الإمام حسن البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ.

وحسْبي هنا أنْ أنقل فقرة من كلامه في «رسالة المؤتمر الخامس»،

(١) الأعمال الكاملة لمحمود غنيم (٨٠/١)، نشر دار الغد العربي، ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

حيث يتحـدَّث عن موقف الإخوان مـن الوحدة الوطنيَّة ـ وكانت تسـمَّى حينذاك «الوحدة القوميَّـة» ـ والوَحدة العربيَّة، والوحدة الإسـلاميَّة. وبدأ الحديث عن الوحدة الوطنيَّة، حيث يظنُّ كثير من النَّاس أنَّ تمسُّك الإخوان بالفكرة الإسـلاميَّة، يمنعهم من الإخـلاص للناحية الوطنيَّـة فيقول: «إنَّ الإسـلام قد فرضها فريضة لازمة، لا مناص منها: أنْ يعمل كلُّ إنسانٍ لخير بلده، وأنْ يتفانى في خدمته، وأنْ يُقدِّم أكثر ما يستطيع من الخير للأُمة الَّتي يعيش فيها، وأنْ يُقدِّم في ذلك الأقرب فالأقرب رحمًا وجوارًا، حتَّى إنَّه لم يجز أنْ تُنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر ـ إلَّا لضرورة ـ إيثارًا للأقربين بالمعروف؛ فكل مسـلم مفروض عليه أن يسـدَّ الثغرة الَّتي هو عليها، أنْ يخدم الوطن الَّذي نشـأ فيه، ومن هنا كان المسـلم أعمـق النَّاس وطنيَّة، وأعظمهم نفعًا لمواطنيه، لأنَّ ذلك مفـروض عليه من ربِّ العالمين، وكان الإخوة المسلمون بالتالي أشـد النَّاس حرصًا على خير وطنهم، وتفانيًا في خدمة قومهم، وهم يتمنَّـون لهذه البلاد العزيزة المجيـدة كل عزة ومجد، وكل تقدُّم ورُقِيٍّ، وكل فلاح ونجاح، وقد انتهت إليها رئاسة الأمم الإسلاميَّة بحكم ظروف كثيرة تضافرت على هذا الوضع الكريم. وإنَّ حُبَّ المدينة لم يمنع رسـول الله ﷺ أنْ يحنَّ إلى مكة وأن يقول لأُصيل، وقد أخذ يصفها: «**يا أُصَيْل، دَعِ القلوبَ تَقِرُّ**»[1]، وأن يجعل بلالًا يهتف من قرارة نفسه:

أَلَا لَيْتَ شِـعْرِي هَـلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِـوَادٍ، وحَوْلِـي إِذْخِـرٌ وَجَلِيلُ!

وهَـلْ أَرِدَنْ يَوْمًـا مِيَـاهَ مَجَنَّـةٍ ... وهل يبدُوَنْ لِي شَامَةٌ وطَفِيلُ[2]**؟**

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (١٢٦٦/٤)، ونصه: «يا أُصيل لا تحزنَّا». والخطابي بلفظ: «حسْبُك يا أُصيل». انظر: غريب الحديث (٢٧٨/١)، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، نشـر دار الفكر، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٩)، ومسلم في الحج (١٣٧٦)، عن عائشة، والشعر عند البخاري فقط.

QaradawiBooks.com

فالإخوة المسلمون يحبُّون وطنهم، ويحرصون على وحدته القوميَّة بهذا الاعتبار، ولا يجدون غضاضة على أيِّ إنسان أنْ يخلص لبلده، وأن يفنى في سبيل قومه، وأنْ يتمنَّى لوطنه كلَّ مَجْدٍ وكلَّ عزٍّ وفَخَار. هذا من وجهة القوميَّة الخاصَّة».

ثم يتحدَّث عن الوَحْدة العربيَّة فيقول: «ثم إنَّ الإسلام الحنيف نشأ عربيًّا، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسانٍ عربيٍّ مبين، وتوحَّدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين. وقد جاء في الأثر: إذا ذلَّ العربُ ذلَّ الإسلام، وقد تحقَّق هذا المعنى حين ذلَّ سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والدَّيْلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه.

وأحبُّ هنا أنْ أنبه إلى أنَّ الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة، كما عرفها النبي ﷺ فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «**ألا إنَّ العربيَّة اللسان، ألا إنَّ العربيَّة اللسان**»[(١)].

ومن هنا كانت وحدة العرب أمرًا لا بدَّ منه لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته، وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كلِّ مسلم أنْ يعمل لإحياء الوحدة العربيَّة وتأييدها ومناصرتها، وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربيَّة»[(٢)].

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠٧/٢١)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م. وقال شيخ الإسلام: هذا الحديث ضعيف وكأنه مركب على مالك، لكن معناه ليس ببعيد بل هو صحيح من بعض الوجوه. كما في اقتضاء الصراط المستقيم (٤٦١/١) تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، نشر دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط ٧، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

(٢) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٤١، ١٤٢، نشر المؤسسة الإسلامية للطباعة، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م. وراجع أيضًا: رسالة دعوتنا، ورسالة دعوتنا في =

QaradawiBooks.com

لماذا حدثت الجفوة؟

وإنَّما حدثت الجفوة بين العروبة والإسلام بدخول الغلاة من الفريقين في الميدان، فساء ظنُّ كلٍّ منهما بالآخر، وساء تفسيره لفكرته، فرأينا في القوميين من يعتبر القوميَّة العربيَّة «نبوة جديدة» للعرب، ومن يعتبر الإسلام مجرد «انتفاضة عربيَّة»، ومن يجعل القوميَّة فوق الدين، ومن يقول في شعره:

سَلَامٌ على كُفْرٍ يُوحِّد بيْنَنا وأهلًا وسهلًا بعدَه بجَهَنَّمِ[1]!

ورأينا في الإسلاميين مَن يعتبر القوميين كلهم من هذا الصنف المذكور، ولا يُفرِّق بين فصيل وفصيل، ويعتبر القوميَّة كلَّها جاهليَّة، ولقد حدثت لقاءات وندوات للحوار بين الإسلاميين والقوميين قرَّبت بين المنصفين والمعتدلين من التيارين، وتفهَّم كلُّ طرف ما عند الآخر، والتفهم إذا اقترن بالإنصاف كثيرًا ما يؤدي إلى التقارب والتواصل، بدلًا من التجافي والتقاطع.

خطر الصراع الجديد:

على أنَّ الصراع الآن ليس بين العروبيين والإسلاميين، فإنَّ هناك خطرًا داهمًا يُهدِّد الفريقين جميعًا، وهو الخطر الصهيوني الَّذي يشحذ أسلحته لغزو المنطقة، اقتصاديًّا وثقافيًّا، والهيمنة عليها، وحذف العنوانين معًا: الإسلام والعروبة، وإظهار اسم جديد هو «الشرق الأوسط»، فلا يبقى اسم هذه المنطقة: العربيَّة أو الإسلاميَّة، بل «الشرق أوسطيَّة» الَّتي يكون لإسرائيل فيها نصيب الأسد، وموقع القيادة والتحريك.

= طور جديد، وانظر كتابنا: الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه صـ ١٧٨ ـ ١٨٣، فصل: مصرية عربية إسلامية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(١) القائل: هو الشاعر اللبناني رشيد سليم الخوري الشهير بالشاعر القروي، كما في ديوانه: الأعاصير صـ ١١١، نشر مطابع مجلة الشرق.

QaradawiBooks.com

ومما يؤسف له: أنْ نجد بعض الكبار في ديارنا يدور في هذا الفلك، ويدعو لهـذا التوجه دونما وجـل ولا خجل! بل وجدنا أحـد الوزراء المسؤولين في بلاد الخليج العربي، يحطب في هذا الحبل، ويروِّج لهذه البضاعة الجديدة المشبوهة، في صراحة غريبة يُحسد عليها!

يقول الوزير[١]: «لا شـيء اسـمه «عروبة»! خيال هذا الَّذي يطلقون عليه «القوميَّة العربيَّـة»! هذه كلُّها أحلام خلقناهـا وصدَّقناها، ونجري وراءها، بينما التاريخ والواقع والحقائق تثبت خطأها وعدم جدواها»!

وأكثر من ذلك ما أجاب به عن سـؤال عن هذه «الموجودات» الَّتي تسمَّى «الجامعة العربيَّة» أو «مجلس التعاون الخليجي» و«إعلان دمشق» وغيرها من الكيانـات وهي كثيرة، يقـول الوزير: «الحقيقـة المؤكدة، والواقع الثابت، هو أنَّ هناك كيانًا كبيرًا يسـمَّى «الشـرق الأوسط» وهو الموجود في ملفات القوى العظمى والمتوسطة، وفي وزارات الخارجيَّة والدفاع، وهو الَّذي توضع له الخطط، ويجري التعامل معه» إلخ.

وأدهى من ذلك وأمَرُّ أنْ يقول الوزير العربي: «إنَّ اللغة العربيَّة هي سـبب تفكُّكنا في حين يظنُّ البعض أنَّها الجامع والرابـط بين البلدان العربيَّة والشعوب العربيَّة»! اللغة العربيَّة ـ لدى الوزير الجريء ـ هي لغة الركون إلى الماضي، هي لغـة الجمود وبطء الحركـة، بما تحمله من بلاغة وبيان فارغ من أيِّ مضمون[٢]!

أرأيت كيف تصنع الهزيمة النفسـيَّة بأصحابها؟ إنَّهم ـ تحت شعار

(١) هو السيد يوسف العلوي وزير خارجية سلطنة عمان.

(٢) انظر: مقال حلقة نقاش للأستاذ محفوظ الأنصاري، صحيفة الجمهورية القاهرية بتاريخ ١٣ يناير ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

الواقعيَّة ـ يتنازلون عن كلِّ شيء، ويتخلَّون عن كلِّ عزيز، وينسلخون من جلودهم، لينفِّذوا ما تحويه ملفات القوى الكبرى، وما تخطِّط له وزارات الخارجيَّة والدفاع، وما تحلم به إسرائيل!

إنَّ الوطن والقوم واللغة والتـراث والدِّين والتحرُّر والوَحْدة... وكلَّ المقدَّسـات: ألفاظ لا معنى لها، وأوهام لا صلة لها بالواقع. أمَّا الواقع الماثل بالفعل، فهو الشرق الأوسط، وإسـرائيل، فليكن هذا هو الواقع، فلماذا نستسلم له ولا نجاهد لتغييره؟ لقد كانت إسرائيل حُلْمًا في حكم المستحيل، فأصبح واقعًا يتحدَّانا، فلماذا نحرم أنفسنا أنْ «نحلم» بتغيير واقعنا الأسود، كما غيَّر الآخرون؟

كل رسالات السـماء، ونهضات الأرض، إنَّما قامت لتغيير الواقع، وتحقيق واقع أفضل، والمفارقة العجيبة هنا: أنَّ إسرائيل وحدها من حقِّها أنْ تحلم وتحقِّق، ونحن ليس من حقِّنا مجرَّد أن نحلم!، من حقِّ إسرائيل أنْ تتحرَّك بأحلام التوراة، وليس من حقِّنا أنْ نتحرَّك بوعود القرآن! من حقِّ إسـرائيل أنْ تفرض هويتها الدينيَّة والقوميَّة بحدِّ الحسام، أما نحن فليس من حقِّنا أنْ ندافع عن هويتنا بمحض الكلام! من حقِّ إسرائيل أن تحيي العبرية الميتة، ومن واجبنا نحن أنْ نميت العربيَّة الحيَّة!

ذَلَّ مَـنْ يَغْبِـطُ الذَّلِيـلَ بِعَيْشٍ ... رُبَّ عَيْـشٍ أَخَفُّ مِنْـهُ الْحِمَامُ!
مَنْ يَهُـنْ يَسْـهُلُ الهَـوَانُ عَلَيْهِ ... مَـا لِجُـرْحٍ بِمَيِّـتٍ إِيـلَامُ[1]!

* * *

(١) القائل: أبو الطيب المتنبي. كما في الأمثال السـائرة من شـعر المتنبي صـ ٣٠، نشر مكتبة النهضة، بغداد، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م، وانظر: ديوان المتنبي صـ ١٦٤، نشـر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

لماذا لا يَتَّحِد المسلمون؟

وإذا كان اليهود قد حلموا بقيام دولة لهم تُحيي تراثهم وتجمع شتاتهم، ثمَّ حوَّلوا الحلم إلى حقيقة، فأولى بالمسلمين أن يسعوا إلى توحيد أُمَّتهم الكبرى بكل تياراتهم، حتَّى القوميون المخلصون ينبغي أن يحرصوا على توحيد الأُمَّة الإسلاميَّة بصورة من الصور، فهي ظهير قويٌّ للعرب، بل إنَّ الإسلام عرَّب عواطفهم، فجعلهم يحبُّون العرب، ولسان العرب، وأرض العرب؛ لأنَّ رسولهم عربي، وقرآنهم عربي، وكعبتهم عربيَّة.

ولا غرو أنْ يكون المسلمون أُمَّة واحدة، فإنَّ ربَّهم واحد، ورسولهم واحد، وكتابهم واحد، وقبلتهم واحدة، وشعائرهم واحدة، وشريعتهم واحدة، وفلسفتهم الأساسيَّة عن الدِّين والحياة والله والإنسان واحدة.

ومن شأن هذا كلِّه أن يوحِّدهم في العقيدة والوجهة، ويوحِّدهم في النظرة والفكرة، ويوحِّدهم في الولاء والبراء، وفي المَوَدَّة والعداء، والَّذي أعنيه هنا هو: التوحيد في الكليَّات والأساسيات لا في الجزئيات والتفصيلات، فإنَّ هذه تختلف باختلاف الاجتهادات، وتتعدَّد بتعدُّد زوايا النظر، وتغيُّر الزمان والمكان والإنسان، والاختلاف هنا سعة ورحمة إذا صدقت النيِّات، وفُهِم الاختلاف على وجهه، فلم يؤدِّ إلى تفرُّق ولا عداوة بين المختلفين.

وقد ربط القرآن بين المسلمين برباطٍ لا ينفصم، وهو رباط الأخوة الإيمانية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ومعنى هذا: أنَّه لا يتحقَّق الإيمان بغير الأخوة، ولا معنى للأخوة إذا لم يشعر الأخ بآلام أخيه وهمومه؛ فالمسلم في أُمَّته عضو في جسدٍ حيٍّ، يأخذ منه ويعطيه، ويحيا به، ويصحُّ بصحَّته، ويسلم بسلمه، وقد صوَّر هذا الحديث المتَّفق عليه: «**ترى المسلمين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمَثَلِ الجَسَدِ الواحد، إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعى له سائر الأعضاء بالحُمَّى والسهر**»[(١)].

وهذا التعاطف والتراحم يقتضي أنْ يثمر تعاونًا وتساندًا صوَّره النبي ﷺ بقوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيانِ يشُدُّ بَعْضُه بعضًا**»، وشبك بين أصابعه[(٢)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلِمُه**»[(٣)] أي لا يخذله ولا يتخلَّى عنه.

ولم يكتفِ الإسلام من المسلمين أنْ يكونوا أُمَّة واحدة، في الأفكار والمشاعر، والشعائر والتقاليد، ثمَّ يدعهم بعد ذلك متفرِّقين في سياساتهم، مختلفين في أنظمتهم، متباينين في مصالحهم، متنابذين في ارتباطاتهم وولاءاتهم، هذا يُشرِّق وهذا يُغرِّب، وهذا يتجه إلى اليمين، وذاك إلى اليسار، وهذا يوالي زيدًا، والآخر يوالي عمرًا. وبهذا تتناقض مصالحهم، وتتضارب اتجاهاتهم، وتتباعد ولاءاتهم، وتتناكر سياساتهم،

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

حتَّى يغـدو بعضهم خصمًا لبعـض، بدلًا من أنْ يكـون بعضهم أولياء بعض، بل إنَّ بعضهم قد يستعين بالعدو الكافر على أخيه المؤمن.

وهذا شرُّ ما تُصاب به الْأُمَّة: أنْ «يجعل الله بأسَها بينَها»، كما جاء في الحديث الصحيـح[1]، أو كما عبَّر كتاب الله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعـام: ٦٥]، ذكر القـرآن ذلك في معـرض العقوبات السـماويَّة الَّتي يُنزلها الله بالأمـم إذا أعرضت عن هـداه كالعذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، ومعنى جعل بأس الأُمَّـة بينها: ألَّا يتَّجه بأس الأُمَّة إلى خارجها، إلى عدوِّها، بل إلى الداخل، إلى نفسـها، فإذا كان مـن صفـات الصحابـة رضي الله عنهم أنَّهـم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فإنَّ من صفة هؤلاء أنَّهم أشداء على أنفسهم، رحماء مسترخون مع عدوهم.

وأكثر من هذا: أن يعـادي بعضهم بعضًا، بل يحارب بعضهم بعضًا، وهو ما حذَّر منه الرسـول الكريم في حَجَّة البـلاغ أو الوداع، في بيانه العام للأمة في الشهر الحرام والبلد الحرام حين قال: «**لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضُكم رقابَ بعض**»[2].

كما حـذَّر القرآن من مكايد أعداء المسـلمين الَّذين لا يسـرُّهم أنْ يروهم كالبنيان المرصوص، أو الجسـد الواحد، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وسبب نزول الآية يُبَيِّن أنَّ المعنى: يردُّونكم بعد أخوتكم

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٨٩٠)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

متعادين، وبعد اتحادكم وتلاحمكم متفرِّقين متمزِّقين. وحتى لا يحدث هذا التمزُّق في الأُمَّة المسلمة، شرع لها الإسلام نظامًا محكمًا، يجمع شملها، وينظمها في عِقد متماسك الحبَّات، يجسِّد وحدتها العقديَّة والرُّوحيَّة والفكريَّة في وَحْدة سياسيَّة عمليَّة، ويجعل منها كيانًا واحدًا قويًّا كبيرًا، كيانًا دينيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا.

ملاك الوحدة أمور ثلاثة:

وملاك هذا النظام الَّذي يضبط هذا الكيان الواحد أمور ثلاثة:

الأمر الأوَّل: وحدة دار الإسلام:

وحدة دار الإسلام؛ فالمسلمون لهم دار واحدة وإنْ تعدَّدت أقاليمها، وتنوَّعت عناصر سكانها، واختلفت ألسنتهم وألوانهم، فهم أسرة واحدة تسكن هذه الدار وإنْ تناءت أطرافها، واتسعت أقطارها، وهم ـ كما سمَّاهم الله ورسوله ـ إخوة «**يسعى بذمَّتهم أدناهم، ويجير عليه أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم**»[1].

وعليهم ـ بالتضامن والتعاون ـ أن يحموا هذه الدار من كل عدوان، وأنْ يقوُّوها حتَّى لا يطمع فيها طامع، ولا ينفذ إليها عدوٌّ، فإن غزا أحد أعدائها جزءًا منها، فُرِض على أهله فريضة عينيَّة أن يقاوموه، حتَّى يخرج مهزومًا مدحورًا، وعلى جميع المسلمين معاونتهم بكل ما يستطيعون، الأقرب فالأقرب، حتَّى يشمل الأُمَّة جميعًا عند الحاجة.

(١) رواه أحمد (٦٧٩٧)، وقال مُخرِّجوه: صحيح. وأبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧٣)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

والأمر الثاني: وَحْدة المرجعيَّة العليا:

وحــدة المرجعيَّة العليــا، الَّتي تتجلَّــى في الاحتــكام إلى الكتاب والسُّــنَّة، في ضوء اجتهاد معاصر قويم، يصل الحديث بالفقه كما يصل الفقه بالواقع، ويزاوج بين كليَّــات المقاصد وجزئيَّات النصوص، ويميِّز بين الثابت والمتغيِّر، بين القطعي والظنِّي، بين المنطقة المغلقة والمنطقة المفتوحة، وهي معظم أحكام الشــريعة، مقدِّرًا أنَّ للضرورات أحكامها، وأنَّ الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر.

وينبغي أنْ يتمثَّل هذا الاجتهاد في صورة جَماعيَّة على مستوى الأُمَّة، في صيغة «مجلس للمجتهدين» ينظر في الاجتهــادات القديمة، ليرجح منها ويختار، وفي المشــكلات الحديثة، ليحكم في شأنها، وَفْق معايير منضبطة، لا أهواء منفرطة، ســواء في اجتهاده الترجيحــي الانتقائي أم اجتهاده الإبداعي الإنشائي، ودون تعصُّب لرأي قديم، ولا عبوديَّة لفكر جديد.

والأمر الثالث: وَحْدة القيادة المركزيَّة:

وحدة القيادة المركزيَّة، أو الرئاســة العامة للأمة كلِّهــا، وهي الَّتي تتمثَّل في «الخليفة» أو «الإمام» الَّذي ينوب عن رسولِ الله ﷺ في إقامة الدِّين وسياسة الدنيا به، والرسول الكريم ﷺ يُشَدِّد في إيجاب الوَحْدة، ولزوم الجماعة، والتحذير من الشذوذ والفُرقة. حتَّى إنَّه يوجب استعمال القوَّة للحفاظ على وَحْدة الأُمَّــة، ووَحْدة قيادتها، فقد قــال: «**إذا بويع خليفتان، فاقتلوا الآخِرَ منهما**»[1]، وتنصيب هذا الإمام أو الخليفة واجب

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٣)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

شرعي، أجمعت عليه الأُمَّة كلها، على اختلاف مذاهبها، والنبي ﷺ يقول فيما رواه الإمام مسلم في «صحيحه»: «**من لقي اللهَ وليس في عُنُقه بيعةٌ لإمام، مات مِيتَةً جاهليَّة**»(١).

والصحابة رضي الله عنهم قدَّموا نَصْب الخليفة ومبايعته على دفن رسول الله ﷺ، إيمانًا منهم بأنَّ هذا أمر لا يقبل التسويف والتأجيل. والخلافة أو الإمامة بهذه الصورة ليست مجرَّد سُلْطة تحكم بما أنزل الله، وتتَّخذ الإسلام منهاج حياة في إقليم من الأقاليم، فهذا لا يخرج عن كونه ولاية إسلاميَّة، إنَّما الخلافة تعني قيادة الأُمَّة المسلمة الواحدة بشريعة الإسلام.

قد تختلف صورة الوَحْدة وتتنوع، كما وقع قديمًا، ووقع حديثًا ويقع اليوم، وَحدة اندماجيَّة، فيدراليَّة، كونفدراليَّة، إلخ. المهمُّ أنْ تتحقَّق هذه الأمور الثلاثة: وحدة دار الإسلام، ووحدة الرئاسة أو القيادة المركزيَّة، ووحدة المرجعيَّة العليا، وهنا لا يوجد للتنازع على «الحدود» أو التقاتل عليها، كما هو حادث الآن، إذ الجميع أجزاء من كل، وأقطار في وطن واحد، أو دار واحدة، أو دولة واحدة. ولو فُرِض أنْ حدث نزاع من هذا النوع، فإنَّ حكم الإمام أو الخليفة يرفع الخلاف، ويزيل النزاع، وقد يكون هذا الحكم بواسطة «محكمة عدل إسلاميَّة» يأمر الإمام بتكوينها، لتفصل في أمور الخلاف. وإذا كان القرآن قد أمر بالتحكيم في أمر الخلاف أو الشقاق بين الزوجين: ﴿**فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ**﴾ [النساء: ٣٥]، فأمر الأُمَّة أحقُّ وأولى وأعظم.

كما لا توجد هنا مشكلة الأغنياء والفقراء في توزيع الثروة؛ فإنَّ ظهور ثروة طبيعيَّة ضخمة كالنفط في جزء معيَّن لا يعني أنَّها مِلْك هذا

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥١)، وأبو داود الطيالسي (٢٠٢٥)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

الجزء أو هذه المنطقة وحدها، بل هو مِلْك الأُمَّة كلِّها، وإن كانت المنطقة الَّتي تظهر فيها الثروة تنعم بخيرها أكثر من غيرها بطبيعة الحال، كما هو مشاهد في العالم كله، حتَّى داخل الدولة الواحدة.

خسارة الأُمَّة بهدم قلعة الخلافة:

هذا هو نظام الخلافة أو الإمامة العظمى، الَّذي عرفه المسلمون منذ عهد أبي بكر الصديق والخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الأمويِّين والعباسيِّين والعثمانيِّين، إلى أنْ جاء «أتاتورك» فاجترأ على هتك هذه المظلة الإسلاميَّة، وتهديم هذه القلعة التاريخية، وأعلن في يوم أسود من سنة ١٩٢٤م إلغاء الخلافة الإسلاميَّة العثمانيَّة، الَّتي كانت تمثِّل آخر تجمُّع لأُمَّة الإسلام تحت راية العقيدة، وكان يوم مأساة وحداد وأحزان في طول العالم الإسلامي وعرضه، عبَّر عنه أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته الشهيرة، الَّتي نعى فيها الخلافة إلى الأُمَّة، بعد أنْ ظنُّوا يومًا أنَّ أتاتورك أحد أبطالها، حتَّى قال له شوقي نفسه يومًا:

يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ الْعَرَبِ[1]!

يقول شوقي في نعي الخلافة:

عَادَتْ أَغَانِي العُرْسِ رَجْعَ نُوَاحِ ... وَنُعِيتِ بينَ مَعَالِمِ الأفْرَاحِ
كُفِّنتِ في يَوْمِ الزِّفَافِ بثَوْبِه ... ودُفِنْتِ عندَ تَبَلُّجِ الْإِصْبَاحِ
ضَجَّتْ عَلَيْكِ مَآذِنٌ ومَنَابِرٌ ... وبَكَتْ عَلَيْكِ مَمَالِكٌ ونَوَاحِ

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (٥٩/١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م. صدر البيت: اللهُ أكبرُ كم في الفتحِ من عَجَبِ

QaradawiBooks.com

الْهِنْـدُ وَالِهَـةٌ، ومِصْـرُ حَزِينَـةٌ تَبْكِـي عَلَيْـكِ بمَدْمَعٍ سَـحَّاحِ
والشَّـامُ تَسْـأَلُ والْعِرَاقُ وفَارِسٌ: أَمَحَا مِنَ الْأَرْضِ الْخَلَافَةَ مَاحِ[1]؟!

ولا بدَّ للمسـلمين أن يعملوا جادِّين لإحياء نظام الخلافة في صورة عصريَّة، مستفيدين من تجاربنا، وتجارب الأمم من حولنا، وإعادة الأُمَّة إلى وحدتها، الَّتـي أثبتت الأيام حاجتهم الماسَّـة إليهـا، فهي فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الشرع، وضرورة تحتِّمها الظروف.

الحوائل دون الوحدة:

أذكر أنَّني عندما زرت تركيا لأول مرَّة عقب حرب يونيو سنة ١٩٦٧م ـ حرب الأيام الستة كما سمَّوها، وانتصار إسرائيل السريع والساحق على العرب، فكان من الأسئلة المتكررة الَّتي وُجِّهت إليَّ: لماذا هُزِم العرب ـ وهم نحو مائة وخمسـين مليونًا ـ أمام إسـرائيل وهي نحـو مليونين؟ وبعبارة أخرى: لماذا انتصرت إسـرائيل ـ وهي دولة واحدة ـ على بضع عشرة دولة تضمُّها الجامعة العربيَّة!

وكان جوابي: إنَّ إسـرائيل انتصرت، وانهزمنا نحن لأسـباب كثيرة أهمُّها اثنان:

أولًا: أنَّهم دخلوا الحرب يهودًا، ولم ندخلها نحن مسلمين، دخلوها ومعهم التوراة، ودخلناها وليس معنا القرآن!

ثانيًا: أنَّهـم دولة واحدة، ونحن بضع عشـرة دولـة، إرادة واحدة، واضحة الهدف، محدَّدة الوسيلة، أمام إرادات مختلفة متفرقة، غاب عنها الهدف، وضاع منها الطريق.

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١/١٠٥ ـ ١٠٦).

QaradawiBooks.com

وقد سألني مندوب إحدى الصحف عن حكم الوَحدة بين المسلمين في هذا العصر فقلت: إنَّها فريضة لازمة في كل عصر، ولكنَّها في هذا العصر أوجب وألزم.

قال: وما الَّذي يحول بين المسلمين والوَحْدة؟

قلت: حوائل كثيرة أهمها خمسة:

١ ـ العصبيات العرقية والإقليميَّة، الَّتي جعلت كلَّ مجموعة من المسلمين تعتزُّ بقوميَّتها أو وطنها على حساب الانتماء إلى الأُمَّة الكبرى، فهذا يدعو لقوميَّة طورانيَّة، وذاك يدعو لقوميَّة عربيَّة، وآخر لقوميَّة هنديَّة، أو فارسيَّة، إلخ.

٢ ـ اختلاف المذاهب والاتِّجاهات الأيديولوجيَّة المستورَدة من الغرب والشرق، من اليمين واليسار، فهذا استورد الديمقراطيَّة الليبراليَّة، وذاك استورد الاشتراكيَّة الثوريَّة، هذا أخذ عن «روسو»، وذاك أخذ عن «ماركس»، هذا كتابه المقدس «الأمير» لميكافيلي، والآخر كتابه المقدس «رأس المال»، هذا اتجه إلى اليمين، وذاك اتجه إلى اليسار، واليمين واليسار مراتب ودرجات، فهناك يمين اليمين، ووسط اليمين، ويسار اليمين، كما أنَّ هناك يمين اليسار، ووسط اليسار، ويسار اليسار، فكيف يتوحَّد هؤلاء وأحدهم مُشَرِّق، والآخر مُغَرِّب؟

سارتْ مُشَرِّقة وسِرْتُ مُغَرِّبًا شتَّان بين مُشرِّق ومُغَرِّب[1]!

وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

(١) القائل: ابن هاني الأندلسي. كما في الصبح المنبي عن حيثية المتنبي (٨٨/٢)، نشر المطبعة العامرة الشرفية، ط١، ١٣٠٨هـ.

QaradawiBooks.com

٣ ـ اختلاف الولاءات، ما بين بلد وآخر، فهذا ولاؤه للندن، والثاني لباريس، والثالث لواشنطن، وآخرون ولاؤهم لموسكو أو بكين. وإذا لم يكن أصل الولاء لله ولرسوله، وللذين آمنوا، فلا بدَّ أنْ تتعدَّد الولاءات وتختلف، ويناقض بعضها بعضًا، تبعًا للمتولَّين ومصالحهم وأهوائهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

٤ ـ اختلاف المصالح الإقليميَّة والمحليَّة، الَّتي تَشبَّث المنتفعون بها، من ذوي السلطان، ومن يستظلُّ بظلِّهم، ويدور في فلكهم، برغم استيقان الجميع أنَّ الضرر كل الضرر، والخطر كل الخطر، في بقاء هذه التجزئة الَّتي تهدم ولا تبني، وتضعف ولا تقوِّي، وتُميت ولا تُحيي، ولكن لا يريد أحد أن يضحِّي بسلطانه الضعيف الصغير من أجل سلطان أقوى وأكبر لأُمته، لأنَّ هنا ملك أو رئيس أو أمير، له شأن وهَيْل وهَيْلمان، وجيش وأعوان، ولن يكون له مثل ذلك في ظلِّ الدولة الكبرى؛ فليحتفظْ كلٌّ بسلطانه، وليقاتلْ دونه، وإن كانت مساحة سلطانه لا تكاد ترى على خريطة العالم إلَّا بالمِجْهر!

٥ ـ وهناك أمر خامس، أَخَّرتُ ذِكْره لأنِّي أحرص دائمًا على تأكيد العوامل الداخلية والذاتية، وأعني به العامل الخارجي، الَّذي يتمثل في المكايد الأجنبية، من صهيونية، وصليبية، وإلحادية، ووثنية، ممَّن يهمُّهم أنْ يظل المسلمون متفرِّقين، بل متناحرين، وهؤلاء مهرة في بذْر بذُور الخلاف بين الدول المنتسبة إلى الإسلام، وتعهُّد هذه البذور بالسقي والتسميد، حتَّى تُثمر ثمرها النَّكِد، في تمزيق الأُمَّة، إلى حدِّ التعادي، بل التقاتل، من أجل حدود مُتنازَع عليها، أو خلافات قديمة، يعملون

QaradawiBooks.com

على إحيائها وإذكائها، أو إثارة نزعات عنصرية، أو تعصبات إقليميَّة، أو اختلافات دينيَّة أو سياسيَّة، وهم لا يبالون باستخدام الدسِّ والنميمة والكذب الصراح، وتسميم الآبار، ليقتتلَ الإخوة، وهم يتفرَّجون، فلا شيء عندهم حرام، والغاية عندهم تبرِّر الوسيلة.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مقوِّمات القوَّة في الأُمَّة

إنَّ هذه الأُمَّة المسلمة تملك من الطاقات والمقوِّمات والإمكانات المادِّيَّة والمعنويَّة، ما يجعلها في طليعة الأُمم، ويمنحها مكانتها، كما أراد الله لها: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. من هذه المُقوِّمات:

القوَّة العدديَّة:

فهذه الأُمَّة تملك طاقة بشريَّة ضخمة، تُقدَّر نحو مليار وربع المليار من المسلمين، في أنحاء العالم، وهي أمة خصبة ولود، فهي في زيادة وغيرها من الأمم في نقص مستمر، جعل بعض مفكِّريهم يتخوَّفون من مصيرها، وقد امتنَّ الله بكثرة العدد، فقال على لسان بعض رسله: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ويقول الشاعر العربي قديمًا مفتخرًا بكثرة قومه:

مَلَأْنَا الْبَرَّ حتَّى ضَاقَ عَنَّا ... ونَحْنُ الْبَحْرُ نَمْلَؤُهُ سَفِينَا[1]

وقال آخر:

وإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاثِرِ[2]!

(١) القائل: عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة. انظر: ديوانه صـ ٩١، تحقيق إيميل بديع يعقوب، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ.

(٢) القائل: الأعشى، كما في الرسائل السياسية للجاحظ صـ ٤٢٧، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت.

QaradawiBooks.com

صحيح أنَّ العِبْرة ليست بالكم بل بالنوع. ولهذا حذَّر الحديث النبوي أُمَّة الإسلام من عصر يوشك أنْ تتداعى فيه الأمم عليهم «**كما تتداعى الأَكَلةُ على قصعتها**». قالوا: أوَمِنْ قلَّة نحن يومئذٍ يا رسولَ الله؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنَّكم غُثاء، كغُثاء السيل، ولينزعنَّ اللهُ من صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهَن**». قالوا: وما الوَهَن يا رسولَ الله؟ قال: «**حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت**»[1].

شبَّههم مع كثرتهم بالغثاء الَّذي يحمله السيل من الحطب والقش والأوراق ونحوها، وكلها أشياء تشترك في أمور أربعة:

١ ـ الخفَّة والسطحيَّة.

٢ ـ عدم التجانس بينها.

٣ ـ فقدان الهدف والغاية من مسيرها.

٤ ـ فقدان الطريق المحدَّد لسيرها.

ففرق ما بين ماء النهر وماء السيل: أنَّ ماء النهر له مصب معلوم، ومجرى مرسوم، أمَّا السيل فلا تُعرف له غاية، ولا يُعلم له خط؛ ولهذا يُخرِّب ولا يُعمِّر، ويُفسد ولا يُصلح، وكذلك شأن الأُمَّة في «المرحلة الغُثَائية» من حياتها.

ولهذا ندعو إلى الاستفادة من القوَّة البشريَّة للأُمَّة بحسن إعدادها، وتعليمها وتربيتها وتوثيق روابطها، وفتح المجالات لها، وربطها بأهداف كبرى تعيش لها وتجاهد في سبيلها، فتجد للحياة معنًى وطعمًا،

(١) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وقال مُخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٥٨)، عن ثوبان.

QaradawiBooks.com

وتستعذب العذاب لتحقيق أحلامها وطموحاتها، كما فعلت الأُمَّة في قرونها الأولى، حين أقامت دولة العدل والإحسان، وشيَّدت حضارة العلم والإيمان.

وبجوارنا أمم كبرى كالصين، استغلَّت كثرة العدد في الزراعة والصناعة، وغزت العالم بمنتجاتها.

القوة المادِّيَّة:

وتملك هذه الأُمَّة الطاقة المادِّيَّة والاقتصاديَّة: فهي تملك مساحات شاسعة صالحة للزراعة لو وجدت مَن يُحسن استغلالها بما يناسبها، من الغلَّات والمحاصيل والخضروات والفواكه وغيرها، وقد اختلفت بيئاتها وأنواع تُربتها ومناخها، فما لا يصلح في أرض يصلح في أخرى، وما لا يجود في بيئة يجود ويمتاز في أخرى.

وهناك من المعادن والثروات المدفونة في باطن الأرض، وفي قلب البحار والأنهار والبحيرات ما لا يملكه غيرها، فمعظم نفط العالم في القرن القادم من مخزون عالَمنا الإسلامي.

نعم، لا نُنكر أنَّنا لا ننتفع كما ينبغي بهذه الطاقة الهائلة من الثروات الاقتصاديَّة، فبعضها لا يزال بكرًا، وبعضها استخرجه الخواجات من أرضنا، فاشتروه منا «مادة خامًا» بأرخص الأسعار، ثمَّ صنعوه وباعوا لنا منه ما أرادوا بأغلى الأسعار، فأعطونا باليمين ثمَّ أخذوا بالشمال، ولكن هذا تم في حالة «غياب الأُمَّة»، ونحن نتحدَّث عن حالة «حضور الأُمَّة» الَّتي تستطيع أنْ تقيم بينها تكاملًا اقتصاديًّا، بحيث يتمِّم بعضها بعضًا، فهذه تغرس النخيل، وتلك تغرس الزيتون، وأخرى تزرع القمح، ورابعة تزرع جوز الهند إلخ، وهذه تتخصص في صناعة الأخشاب، وثانية في

QaradawiBooks.com

صناعة القطن والحرير، وثالثة في صناعة السيارات، وأخرى في صناعة السلاح، وهذه تُصدِّر الثروة الحيوانية لتلك، وتستورد منها الماكينات، والأخرى تصدِّر النفط وتستورد القطن أو الصوف. لقد ذكرت بعض الدراسات الَّتي صدرت من البنك الإسلامي للتنمية في أوَّل سنة ١٩٩٣م: أنَّ حجم التبادل بين جميع الأقطار الإسلاميَّة لم يزد عن ٨٪(!).

القوة الرُّوحيَّة:

تملك الأُمَّة ـ قبل ذلك كلِّه ـ القوَّة الرُّوحيَّة المستمَدَّة من الرسالة الَّتي أورثها الله إيَّاها، وميَّزها بها عن سواها، ومنحها ـ وحدها ـ الوثيقة السماويَّة الوحيدة، الَّتي تتضمَّن كلمات الله الأخيرة للبشريَّة، أعني القرآن العزيز الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والَّذي تولَّى الله حفظه، فلم يُنقَص منه جملة ولا كلمة ولا حرف: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

هذه الرسالة تتميَّز بالشمول الَّذي وصفه الشهيد حسن البنَّا بقوله: «إنَّها الرسالة الَّتي امتدَّت طولًا حتَّى شملت آباد الزمن، وامتدَّت عرضًا حتَّى انتظمت آفاق الأمم، وامتدَّت عمقًا حتَّى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة»[(١)].

وتتميَّز كذلك بالتوازن، فهي رسالة تصل الأرض بالسماء وتمزج المادَّة بالروح، وتربط الدنيا بالآخرة، وتدعم العلم بالإيمان، وتضمُّ نور العقل إلى نور الوحي ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]. وبهذا تعطي الإنسان الدِّين ولا تسلبه الدنيا، وتمنحه الإيمان ولا تحرمه العلم، وتصله بالسماء ولا تنزعه من الأرض، وتطالبه بالواجب، ولا تأخذ منه الحق.

(١) مقال من وحي حراء للإمام حسن البنا، جريدة الإخوان المسلمون اليومية صـ١، السنة الأولى، العدد (١٦٨)، بتاريخ ٢٧ ذو الحجة ١٣٦٥هـ - ٢١ نوفمبر ١٩٤٦م.

QaradawiBooks.com

وتتميَّز هذه الرسالة بملاءمتها للفطرة السليمة، والعقل الرشيد، ومراعاتها للمصلحة، وتيسيرها على الناس، وتكليفهم ما تسعه طاقتهم، ورفع الحرج عنهم، وتقدير ظروفهم وضرورات حياتهم، ووضع الآصار والأغلال الَّتي كانت عليهم، وكان من أبرز ما وصفت به رسالة نبيِّهم في كتب الأقدمين، أنَّه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

كما تتميَّز هذه الرسالة بسماحتها مع مخالفيها في الدِّين، فهي تعترف بالآخر ولا تلغيه، ما دام لا يقاتلها في الدين ولا يظاهر عليها عدوًّا[(١)].

ويرى القرآن أنَّ اختلاف البشر في عقائدهم ودياناتهم واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

كما أنَّ الحكم في هذا الاختلاف لا يفصل فيه في هذه الدنيا، بل يفصل فيه يوم القيامة: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨، ٦٩].

وقد وضع القرآن دستور العلاقة مع المخالفين في آيتين كريمتين من سورة الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

(١) راجع في ذلك كتابنا: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والبشريَّة أحوج ما تكون إلى هذه الرسالة الحنيفِيَّة السمحة، بعد أنْ أشقتْها المادِّيَّة المسرفة، والإباحيَّة المتلفة، والعصبيَّة المجحفة، ولكن الرسالة لا يقدِّمها إلَّا أُمَّة تتمثَّلها وتجسِّدها في حياتها، فتُقدِّم للناس «النموذج العملي» الَّذي يُقتدَى به فَيُهْتَدَى، وإلَّا فإنَّ فاقد الشيء لا يعطيه، وكان الأمر كما قال بشار، وقد استنجد به بصير ـ وهو أعمى ـ ليدلَّه على الطريق، فقال:

أَعْمَى يَقُودُ بَصِيرًا، لَا أبَا لَكُمُو قَدْ ضَلَّ مَنْ كَانَتِ الْعمْيَانُ تَهْدِيهِ[1]!

* * *

(١) القائل: بشار بن برد، كما في الدر الفريد وبيت القصيد للمستعصمي (٤٥٥/٢)، وديوان بشار بن برد صـ ٩٨، تحقيق السيد بدر الدين العلوي، نشر دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

شروط ضروريَّة لنجاح الأُمَّة

وإنَّما تستطيع أنْ تثبت هذه الأُمَّة وجودها، وتُؤدي رسالتها، وتتبوَّأ مكانتها تحت الشمس، إذا تمسَّكت بما يلي:

١ ـ تحديد الهُويَّة وأساس الانتماء:

أن تحدِّد ـ بصراحة ووضوح ـ هُويَّتها وأساس انتمائها، ولا هُويَّة لها بغير الإسلام، ولا انتماء لها إلى غير نسبه، فهو محور حياتها، ورُوح وجودها، وسرُّ بقائها، وصانع حضارتها، ومكوِّن وحدتها، وقد قال ابن الخطاب بحقٍّ: نحن كنَّا أذلَّ قوم فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ من غيره أذلَّنا الله[1].

وبهذا تُرفض كل العصبيات العنصرية واللونية والإقليميَّة واللغوية والطبقية وغيرها، الَّتي تُفرِّق ولا تجمع، وتهدم ولا تبني.

٢ ـ تحديد المرجعيَّة العليا:

ويترتَّب على هذا: أنْ تُحدِّد المرجعيَّة العليا لحياتها العقديَّة والتشريعيَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة، الَّتي يحتكم إليها النَّاس إذا اختلفوا،

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٥٨٥)، والحاكم في الإيمان (٦١/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

ويرجعون إليها إذا شردوا أو انحرفوا، وما دامت أُمَّة مسلمة فلا مرجع لها غير الإسلام، ولا نعني به إسلام عصر من العصور، أو قُطْر من الأقطار، أو مذهب من المذاهب، إنَّما نعني به «الإسلام الأول»، إسلام القرآن والسُّنَّة، قبل أنْ تشوبه الشوائب، بعيدًا عن تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. الإسلام كاملًا شاملًا خالصًا، بلا زيادة عليه، ولا إنقاص منه، ولا تشويه له، ولا إخلال بِنسَبه.

فهو إسلام واحد معروف الأصول، بيَّن الأهداف، واضح المصادر، لا يقبل التقسيمات المبتدعة: حسَب العصور، فإسلامٌ أموي، وآخر عباسي، وثالثٌ عُثماني.

أو حسَب الأجناس فإسلامٌ عربي، وآخر هندي، وغيرُه فارسي.

أو حسَب الأماكن، فإسلامٌ إفريقي، وإسلامٌ آسيوي.

أو حسَب الموضوعات، فإسلامٌ رُوحي، وإسلامٌ سياسي.

فالإسلام هو الإسلام، كما أنزل الله في كتابه، وكما دعا إليه رسوله، وكما فهمه أصحابه، وكما عرفه خير قرون هذه الأُمَّة؛ فلا مكان إذن لعِلمانيَّة دخيلة، نبتت في أرض غير أرضنا، وصيغت لأُمَّة غير أُمَّتِنا، لتحلَّ مشكلة ليست هي أصلًا عندنا.

٣ ـ ضرورة الاجتهاد والتجديد:

أنْ ترفض الجمود والتقليد، وتؤمن بالاجتهاد والتجديد، وسيلة ضروريَّة لفهم مقاصد الإسلام ونصوصه، وتنزيلها على وقائع الحياة، مراعية ما قرَّره علماؤها من تغيُّر الفتوى بتغيُّر الزمان والمكان والعُرْف والحال، ولا توجد أمَّة حثَّ دينها على الاجتهاد مثل هذه الأُمَّة، حتَّى إنَّ

QaradawiBooks.com

المجتهد فيها ليؤجر على خطئه في اجتهاده، فهو ليس مجرَّد معذور، بل هو عند الله مأجور، وإنَّما أجره لتَحَرِّيه واستفراغه الوُسْع في طلب الصواب، وإن كان أجره دون أجر من أصاب الحقَّ، فهذا له أجران، والأول له أجر واحد، كما صحَّ في الحديث، هذا بشرط أنْ يكون الاجتهاد صادرًا من أهله في محلِّه.

ولا غرْو أنْ تنوَّعت المشارب، وتعدَّدت المذاهب، واختلفت المدارس، وتعايشت جنبًا إلى جنب في ظلِّ رحابة الإسلام، وسماحة الإسلام، كما أنَّ الرسول ﷺ بيَّن للأمة شرعيَّة التجديد في الدين، وذلك بحديثه الشريف: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجدِّد لها دينها**»[1].

وليس معنى التجديد إظهار «طبعات جديدة» من الإسلام في كلِّ قرن أو عصر، تتغيَّر بتغيُّر النَّاس وتتلوَّن بتلوُّن الحياة.

فالحقُّ أنَّ الإسلام ـ بأصوله الثابتة وأحكامه القطعية ـ هو الَّذي يُلوِّن الحياة، ويصبغها بصبغته، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، وهو الحاكم لا المحكوم، والميزان لا الموزون.

وإنَّما التجديد هنا: تجديد الفهم للدِّين، وتجديد للإيمان به، وتجديد للعمل به والعمل له.

وتجديده يعني العودة به إلى أقرب ما كان يوم ظهوره، فهذا هو معنى التجديد: الاجتهاد في العودة بالشيء إلى أصله، وليس تغييره بشيء آخر على أحدث طراز، فليس هذا من التجديد في شيء.

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وسكت عنه، ولكن نقل تصحيحه المناوي في فيض القدير (١٨٤٥)، فلعله سقط من المطبوع، وسكت عنه الذهبي. عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ولا يُظَنَّنَّ ظانٌّ أنَّ العودةَ بالدِّين إلى عصـــوره الأولى: عصور النبوَّة والصحابة وتابعيهم بإحسان، يتضمَّن تضييقًا أو تجميدًا أو تشديدًا على الناس.

كلَّا، فقد عرفنا بالدراســة والمعايشــة الطويلة لتراث الأُمَّة: أنَّ أكثر العصور مرونة وتوسعة وتيســيرًا ومراعاةً للمقاصد، وتحرُّرًا من الجمود والتزمُّت: هو العصر النبوي، فالعصر الراشدي، فمَنْ بعدهم، وكلَّما نزلنا من عصر إلى آخر، بدأ التشديد والتضييق شيئًا فشيئًا، والأخذ بالأحوط لا بالأيســر، وإنْ شــقَّ على الناس، حتَّى أمســى الدين ـ في كثير من أحكامه ـ مجموعة مــن «الأحوطيَّــات» الَّتي تكون فــي النهاية آصارًا وأغلالًا على المكلَّفين، جاء رســول الإســلام ليضعها عن الناس، وقد قال ﷺ: «**إنَّما بُعِثتم مُيَسِّرين، ولم تبعثوا مُعَسِّــرين**»[(١)]، وقال: «**إنَّما أنا رحمةٌ مُهداة**»[(٢)].

والتجديد ليس عمــل فرد يترقَّبه النَّاس في آخــر كلِّ قرن، كما فهم كثيرون من لفظ: «**من يُجَدِّد لها دينهــا**»، فإنَّ كلمة «من» تصلح للجمع، كما تصلح للمفــرد. وما نختاره في معنى الحديــث: أنَّ التجديد يكون جَماعيًّا، وبهذا لا يكون كلُّ دور الفرد أن يقول: متى يظهر المجدِّد؟ بل يقول: ما دوري ونصيبي في حركة التجديد[(٣)]. وإذ كان التجديد مطلوبًا في أمر الدين والأصل فيه الاتباع، فهو أكثــر طلبًا ولزومًا في أمر الدنيا

(١) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الحاكم في الإيمان (٣٥/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٩٠)، عن أبي هريرة.

(٣) انظر كتابنا: من أجل صحوة راشدة صـ ١١ ـ ٣٨، مبحث: التجديد في ضوء السنة، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

والأصل فيها الابتداع، فلا بدَّ من تهيئة المناخ العقلي والنفسي والاجتماعي للإبداع والابتكار، لا للتكرار والاجترار، وتنمية المواهب والقدرات الخاصَّة، وتشجيع العقول المبدعة، وتكريم النبوغ والتفوق، ومعاونته على العطاء الأفضل، واستعادة العقول المهاجرة إلى ميدانها الطبيعي والشرعي في رحاب أُمَّتها، فهي أولى بهم، وهم أولى بها. ومن فروض الكفاية على الأُمَّة في عصرنا: أنْ تنشئ مجالس أو مؤسسات على مستوى الأُمَّة الكبرى، لتنمية الإبداع، ورعاية المبدعين.

٤ ـ تجسيد الإسلام في أخلاق وأعمال:

أنْ تجسِّد إسلامها الَّذي تعتزُّ به في علوم وأخلاق وأعمال، ولا يبقى مجرَّد شعارات تُرفع، أو دعاوى تُدَّعى، أو أقوال تُقال، فإنَّما الإيمان ما وقر في القلب، وصدَّقه العمل.

إنَّ رسول الإسلام جعل الغاية من رسالته أخلاقية، حين قال: «**إنَّما بعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق**»[(١)]، وأثنى ربُّه عليه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وسُئلت زوجه عائشة عن خلقه فقالت: «كان خُلقه القرآن»[(٢)].

وإنَّما تستحقُّ الأُمَّة الانتساب إليه إذا اتَّخذت من أخلاقه وهديه أسوة كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأول هذه الأخلاق: التجرُّد لله والانتصار على شهوات النفس، ونزعات العصبية للقبيلة أو الحزب، فقد رأينا العصبيات العِرقية والقبلية

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١).

QaradawiBooks.com

حطَّمت الصومال، وتوشك أن تحطِّم أفغانستان وتحرق ثمرة جهادها وحَبَّ حصادها إن لم يتداركها الله برحمته، ونرى العصبيَّات الحزبيَّة في أكثر البلاد العربيَّة والإسلاميَّة، تمزِّقها شرَّ ممزَّق، وتفتح ثغرةً لعدوِّها، ليدخل منها، ويعبث بمقدَّراتها.

وثاني هذه الأخلاق: أنْ تخرج الأُمَّة من العجز والكسل إلى أفق الإنتاج والعمل، ولا تكتفي بأيِّ عمل، حسن أو سيِّئ، بل تعبد الله تعالى بإحسان العمل، فإحسان العمل فريضة كتبها الله على المؤمنين، كما كتب الصيام والصلاة: «**إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء**»[١]، «**إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدُكم عملًا أن يُتقنه**»[٢].

لقد أخَّرتنا أخلاق الضعف والسلبية، فلتتمسك الأُمَّة بأخلاق القوَّة والإيجابيَّة. «**المؤمن القويُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف... استعن بالله ولا تعجز**»[٣]، «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل**»[٤]، «**ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده**»[٥]، «**إنْ قامت الساعة وفي يد أحدِكم فَسِيلة** (نخلة أو شتلة صغيرة)، **فإن استطاع ألَّا تقوم حتَّى يَغْرِسها فلْيَغْرِسْها**»[٦].

---

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، عن شداد بن أوس.

(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٢٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠)، عن عائشة.

(٣) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، عن أبي هريرة.

(٤) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٢٨٢٣)، ومسلم في الذكر (٢٧٠٦)، عن أنس.

(٥) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، عن المقدام بن معديكرب.

(٦) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

إنَّ هذه الرُّوح هي الَّتي صنعت الحضارة الإسلاميَّة المتميِّزة، حضارة العلم والإيمان، وأقامت دولة العدل والإحسان، ومدَّت شعاع الإسلام في آفاق الأرض، فما انتشر الإسلام إلَّا بأخلاق المسلمين، وجُلُّ بلاد الإسلام لم يدخلها جيش فاتح، بل مسلم صالح، على أنَّ الجيش قد يفتح أرضًا ولكنَّه لا يفتح قلبًا، إنَّما القلوب تفتح بالإقناع والقدوة.

إنَّ الأُمَّة مطالَبة بأن تُقدِّم شيئًا للبشريَّة اليوم كما قدَّمت بالأمس، ولن تفعل ذلك وهي كَلٌّ على غيرها في العلم والعمل، تستورد غذاءها، كما تستورد سلاحها، ولا يشفع لها التغني بأمجاد الماضي إذا لم تصل أسبابه بالحاضر، وإلَّا صدق فيها ما قاله الشاعر قديمًا:

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عن جُلِّ أَمْرِهِمُو ... قَصِيدَةٌ قالَها عمرُو بنُ كُلْثُومِ!
يُفَاخِرُونَ بها مُذْ كان أَوَّلُهم ... يَا لَلرِّجَالِ لشِعْرٍ غَيْرِ مَسْؤُومِ!
إنَّ القديمَ إذا ما ضاع آخِرُه ... كصارمٍ فَلَّتِ الأيامُ مَثْلُومِ[1]

* * *

(١) القائل: بعض شعراء بكر بن وائل، كما في الأغاني للأصفهاني (٥٧/١١)، نشر دار الفكر، بيروت، ط٢.

QaradawiBooks.com

خاتمـــة

والخلاصـــة، أنَّ الأُمَّة الإســـلاميَّة حقيقة واقعـــة، ولكنَّها لا تجد ما يُعبِّر عنها في واقع المسلمين، و«منظمة المؤتمر الإسلامي» عاجزة عن تجسيد هذه الحقيقة، فهي كيان هشٌّ، يكاد إذا نفختَ فيه يذوب. حتَّى الاسم نفسه يدل على الوهن، فهي ليست منظَّمة البلاد الإسلاميَّة، أو جامعة الدول الإســـلاميَّة، على غـــرار جامعة الـــدول العربيَّة، فقد رفضت تلك التســـمية دول معروفة أبت أن توصف بالإسلاميَّة، فهي عِلمانيَّة، وظلَّت هذه المؤسَّسة الَّتي تمثِّل مليارًا وربعًا من البشر تنتسب إلى ما سُمِّي «المؤتمر الإسلامي»[1]، وهي تسمية لأدنى ملابسة، كما يقول النحويُّون.

لم يجد المسلمون مَن يحلُّ مشكلة النزاع بين العراق والكويت، ولا مشـــكلة العراق وإيران، حتَّى انتهت بالاستعانة بالأجانب لحلِّها بالتدخُّل العســـكري، ومثل ذلك مشـــكلة الصومـــال والصراع بين فصائله، وأدهى من ذلك وأمر: مأســـاة القتال بين فصائل المجاهدين في أفغانستان!

(١) ومع هذا يجب أنْ تبقى «منظمة المؤتمر الإســـلامي»، وإن كان بها ما بها من الضعف، مع اجتهاد المخلصين في العمل على تقويتها وشـــد أزرها، وإزالة العوائق من طريقها، وســـد مواضع الخلل فيها، وتهيئة الأسباب لنجاحها، وإذا صدقت النيات ذللت العقبات.

غير مرخصة للطباعة

وإذا كان هـذا موقف الدول والحكومات والمؤسسـات الرسـمية، فالأمل في الشـعوب والجماهير، المعتزَّة بانتمائها إلى الإسلام، والتي تحيا أُمة الإسلام في ضميرها، وخصوصًا في عصر الصحوة والانبعاث.

إنَّنا نريدهـا «أُمة» واحدة، كما أمـر الله، لا أُممًا متناكـرة، كما أراد الاستعمار، وكما تريد القوى المعادية للإسلام.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

بيني وبين الأستاذ سيِّد ياسين
التعقيب الأوَّل للأستاذ سيِّد ياسين

الحركة الإسلاميَّة بين حُلْم الفقيه وتحليل المؤرخ:

عرف التاريخ الإنساني أنماطًا متعدِّدة من الحالمين بمجتمع أفضل، وصورًا كثيرة من الأحلام الكبرى الَّتي ضمنت كل أشواق الإنسانيَّة في الحرية والعدل والمساواة، ولم تكن هذه الأحلام سوى ثورة على الواقع المتردِّي، ومحاولة لتجاوزه، إن لم يكن على المستوى الفعلي، فعلى مستوى الحلم. وهكذا صيغت عبر المراحل التاريخية المختلفة «يوتوبيَّات» أو مدن فاضلة متعدِّدة منذ جمهوريَّة «أفلاطون» إلى المدينة الفاضلة للفارابي، وصولًا إلى عديد من «اليوتوبيات» الحديثة الَّتي ربَّما كان من أبرزها محاولات «توماس مور» وغيره من المُفَكِّرين الغربيِّين، وكلُّ هذه المحاولات الفكريَّة على تعدُّد مناهجها واختلاف رؤاها، جمع بينها خيط واحد، هو عدم القبول بالواقع من منطق الرغبة في تغييره وفق خطوط محدَّدة يرى المفكر الحالم أنَّه يمكن بناءً عليها إعادة صياغة العالم، ليكون أكثر عدلًا وحرية، ولكنَّها تختلف فيما بينها بعد ذلك، وخصوصًا فيما يتعلق بدرجة التفصيل في رسم الملامح، وبيان المراحل، وفي التصريح بالقِيَم الأساسيَّة الَّتي يصدر عنها المفكر.

استمرارًا لهذا التقليد الفكري الإنساني، فاجأنا الفقيه الإسلامي

QaradawiBooks.com

المعروف الدكتور يوسف القرضاوي بصياغة حلم إسلامي، يهدف إلى توحيد الأُمَّة الإسلاميَّة كلِّها، ويعني بالأُمَّة كل المسلمين في مختلف أنحاء الأرض، مهما اختلفت جنسياتهم وأوطانهم ولغاتهم وتقاليدهم وفهمهم للإسلام، وذلك تحت رئاسة خليفة إسلامي واحد. ومصدر المفاجأة ليس في هذا الحلم الإسلامي في حدِّ ذاته، فمن حقِّ كلِّ مفكر أنْ يحلم كما يشاء، ولكن في الدوريَّة الَّتي نشرت فيها تفاصيل الحُلْم، وهي تقرير «الأُمَّة في عام» الَّذي يصدره دوريًّا مركز الدراسات الحضاريَّة الَّذي يُعبِّر عن الحركة الإسلاميَّة، فهذا التقرير من المفروض فيه أن يكون تقريرًا إستراتيجيًّا يتناول فيه الشؤون السياسيَّة والاقتصاديَّة والإسلاميَّة، وهو قد صيغ على غرار «التقرير الإستراتيجي العربي»، الَّذي يُصدره منذ تسع سنوات سنويًّا مركز الأهرام للدراسات السياسيَّة والإستراتيجيَّة، ومصدر الدهشة هنا أن تتصدَّر مقدمة الدكتور القرضاوي الَّتي تتضمن هذا الحلم الكبير هذا التقرير الإستراتيجي الإسلامي ممَّا يجعلنا نتساءل: هل كان هذا هو الموضع المناسب للنشر؟ إنَّ التحليل الإستراتيجي ـ بحسب التعريف ـ لا بدَّ له أن ينهض على الوقائع وتحليلها، وهو إنْ أُسِّس على مجموعة من الأوهام أو الأماني فقد شروطه العلميَّة، وانعدمت مصداقيته الأكاديميَّة، ومن هنا يصح التساؤل: هل يمكن الجمع بين الإستراتيجيَّة واليوتوبيا؟

ومما يزيد من واقع الدهشة أنَّه بعد أن ينتهي القارئ من قراءة مقدمة القرضاوي بعنوان «الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة لا وهم»، والتي تضمَّنت حلم إنشاء الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة من جديد بقيادة «خليفة»، لم يتحدث عن كيفية اختياره، نرى تقديمًا للأستاذ طارق البشري بعنوان «الأوضاع الثقافيَّة للحوار» يقوم على تحليل رصين للواقع السياسي والاجتماعي والثقافي ويكشف عن منهج عقلاني دقيق.

QaradawiBooks.com

وهكذا في تقرير واحد يتجاور المنهجان: المنهج المثالي الَّذي يحلم بإعادة إنشـــاء الإمبراطوريَّة الإســـلاميَّة وتنصيب الخليفة على رأســـها، والمنهج العقلاني الَّذي لا يشـــطح في آفاق الخيـــال، وإنَّما ينطلق من أرض الواقع.

وربما كشف هذا التجاور والتناقض معًا، الصراع الكامن داخل صفوف الحركة الإســـلاميَّة ذاتها بين الحالمين أيًّا كانت اتجاهاتهم وبين الواقعيين الَّذين يريدون التعامل مع الواقع بلغة الواقع، وليس بلغة الخيال.

ولا يعني ذلك علـــى وجه الإطـــلاق أنَّ هؤلاء الحالميـــن يطلقون لخيالهم العنان بغير ضابط أو رابط، بل إنَّ حُلْم الفقيه يوسف القرضاوي مصاغ بدقة منهجيَّـــة بالغة، فهو ينطلق من مجموعـــة مقدِّمات مترابطة، وينتهي إلى مجموعة نتائج محـــدَّدة، كل ما يعيبه: أنَّه ليس له أي علاقة بالواقع الدولي في جوانبه السياســـيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، كما أنَّه لا يعنيه لا الواقع الإقليمي ولا الواقع المحلي لكل بلد إسلامي.

المسألة بالنسبة له في غاية البساطة، فما دام أنَّ المسلمين المتوزِّعين في بقاع العالم يدينون بالإسلام، فما الَّذي يمنع من تجميعهم في وحدة سياسيَّة واحدة، يقف «الخليفة» على رأسها.

الأُمَّة الإسلاميَّة بين الحقيقة والوهم:

والدكتـــور القرضاوي يطرح منـــذ البداية ســـؤالًا هامًّا: هـــل الأُمَّة الإســـلاميَّة وهم أم حقيقة؟ ويجيب أنَّها حقيقـــة بمنطق الدين، وبمنطق التاريخ، وبمنطق الجغرافيا، وبمنطق الواقع، وبمنطق الآخرين، وبمنطق المصلحة والعصر.

QaradawiBooks.com

وهو يستدلُّ على أنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة بمنطق الدِّين، لأنَّ القرآن الكريم هو الَّذي اعتبر المسلمين «أُمَّة» بل «أُمَّة واحدة» ولم يعتبرهم أممًا. وهي أُمَّة بمنطق التاريخ؛ لأنَّها ظلَّت هي الأُمَّة الأولى في العالم قرابة ألف عام، امتدَّت إلى الصين شرقًا، والأندلس غربًا، يحكمها خليفة واحد في معظم الأحيان، أو أكثر من واحد في بعض الأحيان، وهي أُمَّة بمنطق الجغرافيا؛ لأنَّها تعيش في أقطار متصلة متشابكة، بعضها موصول ببعض، من «جاكارتا» شرقًا إلى «رباط الفتح» غربًا، أو من المحيط إلى المحيط، أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، وهي أُمَّة بمنطق الواقع؛ لأنَّ الشعور بوحدة الأُمَّة والإحساس بآلامها وأفراحها شعور سائد ومتغلغل في كيان أبنائها وخصوصًا في أوقات الشدائد والمحن.

وهي أُمَّة بمنطق الآخرين؛ لأنَّ خصومها ينظرون إلى المسلمين باعتبارهم أُمَّة ذات عقيدة واحدة. ولهذا لا يلتفتون كثيرًا إلى التقسيمات السياسيَّة الَّتي صنعوها هم ولا إلى الخصوصيات القوميَّة والاختلافات الإقليميَّة والصراعات السياسيَّة والنزاعات الحدوديَّة؛ لأنهم يعلمون أنَّ روح الأُمَّة شيء أعمق من هذه القشرة الظاهرة.

وهي أُمة بمنطق المصلحة والعصر، بمعنى أنَّه لو لم نكن أمَّة بالفعل، لوجب علينا ـ تبعًا لمنطق المصلحة ومنطق عصرنا نفسه ـ أنْ نخترع لنا أُمة كبرى، نتكثر بها، وننضمُّ إليها، ونحتمي بحماها.

وليس هناك في نظر شيخنا القرضاوي تناقض بين الانتماء إلى الأُمَّة الإسلاميَّة والانتماء إلى وطن من الأوطان.

وإذا كانت الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة لا وهمًا، فكيف يمكن بناء الوحدة السياسيَّة الَّتي ستضمُّها؟ هناك ثلاثة أمور تضبط هذا الكيان الضخم

QaradawiBooks.com

المرتقب وهي: وحدة دار الإسلام، بمعنى أنَّ المسلمين لهم دار واحدة، وإن تعددت أقاليمها وتنوَّعت عناصر سكانها. والأمر الثاني هو وحدة المرجعيَّة العليا الَّتي تتجلَّى في الاحتكام إلى الكتاب والسُّنَّة، في ضوء اجتهاد معاصر قويم، يمارسه «مجلس للمجتهدين». والأمر الثالث وحدة القيادة المركزيَّة أو الرئاسة العامة للأُمَّة كلها، وهي الَّتي تتمثل ـ كما يقرِّر القرضاوي ـ في «الخليفة» أو «الإمام»، الَّذي ينوب عن رسول الله ﷺ في إقامة الدِّين وسياسة الدنيا به.

ويطالب الشيخ القرضاوي المسلمين أن يعملوا جادِّين لإحياء نظام الخلافة في صورة عصريَّة، بعد أن ألغاها أتاتورك عام ١٩٢٤م حين ألغى الخلافة الإسلاميَّة العثمانيَّة.

وهكذا تكتمل ملامح الحُلْم الكبير الَّذي صاغه شيخنا القرضاوي، والَّذي أسَّسه على تجاهل الواقع السياسي والاقتصادي للأقطار الإسلاميَّة، وإنكار أنَّ هناك تباينات ضخمة في فهم الإسلام ونصوصه، فالإسلام في رأيه هو الإسلام، وليس هناك إسلام عربي أو هندي أو فارسي، أو إفريقي أو آسيوي، كما أنَّه ليس هناك إسلام حسب الموضوعات، فليس هناك إسلام روحي، وإسلام سياسي.

وإذا كان حُلْم الشيخ القرضاوي يمكن إضافته إلى التراث الفكري الإنساني للعوالم المثاليَّة الَّتي بناها مفكِّرون وحالمون سابقون أيًّا كانت اتجاهاتهم، فإنَّ خطورة هذه الأحلام المثاليَّة تتجلى حين تسعى بعض الحركات الفكريَّة أو النظم السياسيَّة لتحويلها إلى واقع، باستخدام العنف أو الإرهاب، ومن خلال محاولة القفز فوق الحقائق والاستهانة بالحدود بين الدول والتدخل في شؤونها الداخلية، وإثارة الاضطراب السياسي على المستوى الإقليمي أو العالمي.

QaradawiBooks.com

وحتَّى لا نتحدَّث عن هذه المخاطر على سبيل التجريد، نقنع بالإشارة الموجزة إلى مَثَلَيْن معاصِرَين: النموذج السوداني، والنموذج الإيراني، أمَّا النموذج الأوَّل، فالحُلم الَّذي يهيمن على عقل الدكتور حسن الترابي، والَّذي يهيمن بفكره وممارسته على النظام السوداني، هو خلق حركة إسلاميَّة عالميَّة، ويكشف عن ذلك المؤتمرات الدوريَّة الَّتي يعقدها برئاسته في الخرطوم، والتي يهدف من ورائها إلى صياغة إستراتيجيَّة إسلاميَّة عليا، تتمثل أهدافها في قلب النظم السياسيَّة العِلمانيَّة القائمة في البلاد العربيَّة، والسيطرة عليها باسم تطبيق الإسلام، حتَّى استخدم العنف السياسي والإرهاب وسيلة لتحقيق ذلك.

والنموذج الثاني هو النظام الإيراني الَّذي ما زالت تعشِّش في أذهان قادته أحلام تصدير الثورة الإسلاميَّة من خلال الهيمنة الإيرانية والتوسع الإقليمي.

وهكذا يمكن القول: إنَّ ممارسة الفكر المثالي، سواء على صعيد المجتمع الواحد، من خلال نشر الأوهام عن إمكانية تأسيس مجتمع الفضائل الَّذي لا تشوبه شائبة بمجرَّد إعلان حكم الإسلام، أو على الصعيد الإقليمي من خلال تبني نظرية تصدير الثورة الإسلاميَّة ليس من شأنه سوى وضع العقبات أمام التفكير العقلاني الَّذي يسعى إلى القضاء على الاستقطاب الفكري، والتطرف الأيديولوجي، والَّذي يهدِّد بتفتيت قوى المجتمع، وتضييع وقت الأُمَّة في مناظرات عقيمة للمفاضلة بين العِلمانيَّة والإسلاميَّة على سبيل المثال، أو بين العروبة والإسلام، أو بين المؤمنين والكافرين، وهي مناظرات من شأنها أن تصرفنا عن ممارسة التحليل العقلاني لمشكلات المجتمعات الَّتي نعيش فيها، والزاخرة بكل صور التخلُّف المادِّي والفكري.

QaradawiBooks.com

تحليل المؤرخ:

وعلى عكس المنهج المثالي الَّذي مارسه شيخنا القرضاوي في حُلْم إعادة بنـــاء الإمبراطوريَّة الإســـلاميَّة بقيـــادة الخليفة، مـــارس المؤرخ المعروف طارق البشري المنهج العقلاني في تقديمه لنفس تقرير «الأُمَّة في عام» في دراسته والتي وضع لها عنوانًا «الأوضاع الثقافيَّة للحوار».

وعلى عكـــس القرضاوي تمامًا، فالبشـــري يبدأ فـــي تأصيله لفكرة المشروع الوطني من الواقع، وليس من التصوُّرات الذهنيَّة الَّتي يبلورها مفكر فرد أو مجموعة مفكِّرين، ويحاولون إســـقاطها على الواقع، ولعل الثقافة التاريخية العميقة للبشري باعتباره مؤرخًا لامعًا تعوَّد على التعامل مع الحقائق التاريخية بالمنهج العلمي، هو الَّذي عصمه من الانزلاق إلى ممارسة الأحلام المثاليَّة، بالرغم من أنَّه ـ مثله في ذلك مثل القرضاوي ـ من أنصار التيار الإسلامي المســـتنير ومن أعلى الأصوات الَّتي تطالب بتحقيق مطلب الأصالة الحضاريَّة في سعينا المعاصر نحو التقدم. وهكذا يركز البشـــري نظره على التفاعلات الَّتي تحدث بيـــن مختلف الروافد والتيارات والفصائل السياســـيَّة على أرض الواقع لاستخلاص العناصر الأساسيَّة للمشـــروع الوطني، ومحاولة التأليف بينها. وهكذا في الوقت الَّذي يصوغ فيه القرضاوي نســـقًا فكريًّا مغلقًا، يقوم على أساس الجمع القسري بين المتناقضات، ممَّا من شـــأنه أن يثير خلافات فكريَّة واسعة المدى، وخصوصًا بين من يرفضون المفهوم الأساســـي الَّذي يقوم عليه مشروع القرضاوي نفسه، وهو جمع المسلمين جميعًا في مشارق الأرض ومغاربها في وحدة سياســـيَّة واحـــدة، أو فكرة العودة مـــرَّة أخرى إلى تنصيب «خليفة» للمســـلمين، بالرغم من كل ما شـــاب هـــذا النظام في التطبيق من مســـاوئ متعددة ومثالـــب لا حدود لها، ممَّا يكشـــف عنه

QaradawiBooks.com

التاريخ الإسلامي، فإنَّ البشري يقدِّم نسقًا فكريًّا مفتوحًا، يقوم على الانطلاق من أرض الواقع، ويتأسَّس على أساس الحوار الديمقراطي المفتوح من كافة التيارات.

وهكذا يمكن القول: إنَّ حُلْم الفقيه بإعادة تكون الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة الَّتي يحكمها باسم الإسلام خليفة واحد ـ مهما كان من حقِّ الشيخ القرضاوي في أنْ يحلم كما يشاء ـ من شأنه إشعال نار الخلافات بين مختلف التيارات في مجتمعاتنا، بعكس مشروع البشري الَّذي يهدف إلى الحوار والاتفاق على الملامح الرئيسية لمشروع وطني تُجْمِع عليه كافة الفصائل السياسيَّة والتيارات الفكريَّة.

والحقيقة أنَّ الصراع بين التيار المثالي والتيار العقلاني في الحركة الإسلاميَّة المعاصرة يكشف عن المشكلات الَّتي تجابهها في تعاملها سواء مع النظم السياسيَّة العربيَّة الراهنة، أو مع التيارات الفكريَّة والفصائل السياسيَّة الَّتي لا تنطلق مع الإسلام كمقولة أساسيَّة تحكم حركتها، وإنَّما تفصل بين الدين والسياسة.

وتبدو هذه المشكلات أوضح ما تكون في الوهم الَّذي يعتنقه أنصار التيار المثالي بأنَّ مجرَّد رفع شعار «الإسلام هو الحل» من شأنه حل كافة مشاكل المجتمع، لو طبقت الشريعة الإسلاميَّة كما يفهمون هم هذا التطبيق. ذلك أنَّ المجتمعات الإنسانيَّة وإن كانت تتأثر بالمثاليات والقِيَم، إلَّا أنَّ السلوك الفعلي للبشر عادة ما ينزع إلى الابتعاد عن هذه المثاليات والقِيَم، ومن هنا فتقديم هذه الحركات الإسلاميَّة نفسها كبديل للنُّظم السياسيَّة القائمة، من شأنه أنْ يكون مثالًا متجسِّدًا للفضيلة والأخلاق، وهم لا يمكن أن يصمد للاختبار الواقعي، ولو كان هذا

QaradawiBooks.com

صحيحًا، فما هو تفسير المظالم الَّتي سادت مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، بالرغم من تطبيق الشريعة الإسلاميَّة؟ ولو أخذنا أمثلة معاصرة للنُّظم السياسيَّة الَّتي ترفع لواء تطبيق الشريعة الإسلاميَّة، لوجدنا أنَّ مجرد رفع الشعار لا يغني عن سلامة التطبيق.

ومن ناحية أخرى فإنَّ تطبيقات المنهج المثالي في مجال السياسة الخارجيَّة يمكن أنْ تكون بالغة الضرر بالمصالح الوطنيَّة للبلاد، أو للمصالح القوميَّة للنظام العربي. ولو أخذنا على سبيل المثال موقف أنصار هذا المنهج من حلِّ الصراع العربي الإسرائيلي، الَّذي ينطلق من قناعات دينيَّة تقوم على أساس أنَّ اليهود باعتبارهم يهودًا هم أعداء خالدون للمسلمين، وأنَّه لا يجوز التعامل معهم، وأنَّه ليس هناك سوى الجهاد ضدَّهم سبيلًا لتحرير الأرض العربيَّة، وأنَّ التفاوض معهم، أو الحل السلمي فيه مخافة لهذه القناعات لأدركنا أن تحكيم هذا المنهج في مجال السياسة الخارجيَّة، وحل الصراعات، قد يؤدي إلى سلبيات لا حدود لها؛ لأنَّ هذا المنهج ـ بحكم أُسسه المعرفيَّة ـ غير قادر على التعامل مع الحقائق والوقائع، بل إنَّه يقوم أساسًا على القفز فوق الواقع.

وهكذا كتب علينا في حوارنا الَّذي لا بدَّ لنا أن نمارسه مع أنصار الحركة الإسلاميَّة أن نجابه نمطين من التفكير: حُلْم الفقيه، وتحليل المؤرِّخ، فلنحاول التحاور مع من ينطلقون من الواقع، سعيًا وراء الاتفاق على حدٍّ أدنى لمكونات المشروع الوطني الَّذي نرجو أنْ يتَّسع لتحقيق الأهداف الكبرى لأُمَّتنا: الحرية السياسيَّة والعدالة الاجتماعيَّة والأصالة الحضاريَّة.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

رَدِّي على التعقيب الأوَّل
حول مقال «الحركة الإسلاميَّة بين حُلم الفقيه وتحليل المؤرخ»[1]

قرأت ما كتبه الأستاذ السيِّد ياسين يوم الاثنين الماضي (١ أغسطس ١٩٩٤م) في صحيفة الأهرام تحت عنوانه الأسبوعي «أوراق ثقافيَّة» عن «الحركة الإسلاميَّة بين حُلْم الفقيه وتحليل المؤرخ»، ويقصد بالفقيه شخصي، وبالمؤرِّخ أخي المستشار طارق البشري، وذلك من خلال المقدِّمتين الَّتي كتبتُ أولاهما، وكتب الأستاذ طارق الأخرى، لكتاب أو تقرير «الأُمَّة في عام» الَّذي أصدره «مركز الدراسات الحضاريَّة» عن الشؤون السياسيَّة والاقتصاديَّة الإسلاميَّة.

كانت مقدِّمتي إجابة عن سؤال كبير هو: هل توجد أُمة إسلاميَّة في الواقع أو لا؟ وكان الجواب: إنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة لا وهم. حقيقة بمنطق الدين، وبمنطق التاريخ، وبمنطق الجغرافيا، وبمنطق الواقع، وبمنطق الآخرين، وبمنطق المصلحة والعصر، كما لخَّص الكاتب ذلك بأمانة. ولي على مقال الكاتب جملة ملاحظات:

(١) كان عنوان الرد الذي اخترته هو: لماذا تصادرون حقَّنا في الحُلْم؟ ولكن آثر المسؤولون في الأهرام العنوان المذكور. وقد أبقيت في هذا المقال ما حُذِف في الأهرام، أي أنِّي أنشره كما أرسلته إلى الأهرام.

QaradawiBooks.com

١ ـ اعتبر الأستاذ ياسين ما كتبته حُلْمًا كبيرًا يدخل ضمن «اليوتوبيات» والمدن الفاضلة الَّتي تمنَّاها كثير من الفلاسفة والمفكِّرين ابتداءً من «أفلاطون» إلى الفارابي إلى العصر الحديث، ولم يُنكر الكاتب أنَّ حُلْم الفقيه يوسف القرضاوي «مصوغ بدقَّة منهجيَّة بالغة، فهو ينطلق من مجموعة مقدِّمات» مترابطة، وينتهي إلى مجموعة نتائج محددة، كل ما يعيبه ـ في نظره ـ أنَّه ليس له علاقة بالواقع الدولي في جوانبه السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، كما أنَّه لا يعنيه لا الواقع الإقليمي ولا الواقع المحلِّي لكلِّ بلدٍ إسلامي!

وهذا أحد مآخذي على المقال؛ فالكاتب ـ وإن كان متمكِّنًا متمرِّسًا معروفًا بموقعه ـ إذا كتب حول الإسلام وشريعته وحضارته وأُمته وصحوته، جمح به القلم، وأخطأه التوفيق في كثير ممَّا يكتب. لا أدري: أهو لنقص في المعرفة؟ أم لمسلَّمات فكريَّة قديمة عنده تحتاج إلى مراجعة وتصحيح؟ أم للأمرين كليهما؟ ومن ذلك دعواه أنَّ الحركة الإسلاميَّة لا تملك مشروعًا متكاملًا للنهضة، وهو ما رددنا عليه في كتابنا «بيِّنات الحل الإسلامي».

وأودُّ أنْ أوضح للأستاذ أنَّ الفقيه الحقَّ ليس ـ كما تصوَّره ـ إنسانًا حالمًا، يحيا بعيدًا عن الواقع ومشكلاته؛ فالفقيه الحق ـ كما قال الإمام ابن القيم ـ هو الَّذي يزاوج بين الواجب والواقع، فلا يعيش فقط فيما يجب أن يكون، بل فيما هو كائن[1]. والإمام أحمد يرى من صفات المفتي ـ إلى جوار العلم والحلم والسكينة والكفاية ـ معرفة الناس.

(١) إعلام الموقعين (١٦٩/٤)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

ولا غرو أن جعلنا من شـــروط المجتهد: معرفة النَّاس والحياة والعصر، بما يمور فيه من تيَّارات، وما يؤثر فيه من معارف وأفكار.

والفقه هو الَّذي يقود الـــدورة الحضاريَّة للأُمَّة، ويضبط إيقاعها على موازين الكتاب والسُّـــنَّة، وكثيرًا ما يقترح الحلول لمشكلاتها في ضوء أحكام الشـــرع المقررة، مهتديًا بما قرَّره علماء الأُمَّـــة: أنَّ الفتوى تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والعُرْف والحال.

وأحكام الشرع الثابتة بالكتاب والسُّنَّة والإجماع ـ مثل وحدة الأُمَّة ـ لا توصف بأنَّها مســـتحيلة، ولا بأنَّها أحـــلام، إذ لا يمكن أن يكلِّف الله النَّاس بما يستحيل وقوعه.

وما ذكر الكاتب من خلاف ـ متوهم ـ بيني وبين الأســـتاذ طارق ـ إن صح ـ ليس خلافًا بين فقيه يحلم ومؤرخ يحلِّل؛ فالفقيه قد يُحَلِّل والمؤرِّخ قد يحلم. إنَّما هي طبيعة الموضوع الَّذي كتب فيه كلٌّ منَّا، ولو أنَّه كتـــب فيما كتبت لكتـــب بنفس الروح، ولـــو أنِّي كتبت في موضوعه لكتبت بنفس الروح، وإن اختلف العرض والأسلوب بطبيعة الحال. ومن المعروف في تراثنا: أنَّ الفقيه قد يكون مؤرخًا، والمؤرخ قد يكـــون فقيهًا، فقد كان الطبري شـــيخ المؤرِّخيـــن، وكان فقيهًا له مذهب متبوع، وكان ابن خلدون حكيم المؤرِّخين، وكان فقيهًا مالكيًّا إذ كان قاضيًا شرعيًّا.

٢ ـ أنكر الأستاذ سيد ياسين اعتباري الإسلام إسلامًا واحدًا، وليس إســـلامات متعدِّدة، كما يقول المستشـــرقون وتلاميذهم، فهو يختلف باختلاف الأزمنة، فهناك إســـلام راشـــدي، وإســـلام أُموي، وإســـلام عباسي، وإســـلام عثماني. وباختلاف الأمكنة، فهناك إسلام آسيوي،

QaradawiBooks.com

وإسلام إفريقي. وباختلاف الأجناس فهناك إسلام عربي، وإسلام تركي، وإسلام هندي. وإسلام حسَب الموضوعات، فهناك إسلام رُوحي، وآخر سياسي، إلخ.

والحقيقة أنِّي أنظر دائمًا إلى الأصل لا الفروع، وإلى الجوهر لا الشكل، وإلى ما يجمع لا إلى ما يُفرِّق، وبِحَسْب الأُمَّة أن تلتقي في أصول العقيدة والشهادة والقِبْلة، وتؤمن بالمرجعيَّة العليا للإسلام، كما شرعه الله تعالى وكما دعا إليه رسوله، وكما فهمه الصحابة ومن تعبهم بإحسان، وتؤمن بأنَّ الاجتهاد فريضة وضرورة.

٣ ـ زعم الكاتب أنِّي لا يعنيني ـ فيما كتبتُ ـ الواقع الدولي، ولا الواقع الإقليمي، ولا الواقع المحلي. وهو كلام يحتاج إلى تحريرٍ وتدقيق؛ فالمشروع الَّذي أطرحه مشروع تغييري، يعترف بالواقع ويعرفه، ولكنَّه لا يستسلم له، بل يحاول أن يطوِّره ويغيِّره وفقًا لأهدافه، وهذا المشروع امتداد لما نادى به من قبل جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي، ورشيد رضا، من دعاة الجامعة الإسلاميَّة.

ولا يعني هذا استخدام العنف أو الإرهاب، أو من خلال القفز من فوق الحقائق، والاستهانة بحدود الدول، إلى آخر ما ذكره الكاتب، فهذا ما لا نؤمن به ولا ندعو إليه، إنَّما ندعو إلى التغيير عن طريق الإقناع والتوعية والتثقيف. ومن ذلك: الحوار مع كلِّ التيارات، قوميَّة وعِلمانيَّة، شرقيَّة وغربيَّة كما هو مذكور في كتابي «أولويات الحركة الإسلاميَّة».

كما أنِّي أدعو إلى التدرج من الواقع إلى المثل، سواء أكان ذلك في أمر الوحدة أم في تطبيق الشريعة، فالتدرُّج سُنَّة كونية، وسُنَّة شرعيَّة، كما بيَّنت ذلك في عدد من كتبي. وقد عاب أحد أبناء عمر بن عبد العزيز

QaradawiBooks.com

على أبيه أنَّه يتباطأ في تغيير الواقع. فقال له: يا بُنَيَّ؛ إنَّ الله ذمَّ الخمرَ في القرآن مرَّتين، وحرَّمها في الثالثة، وإنِّي أخشى أنْ أحمل النَّاس على الحقِّ جملة، فيدفعوه جملة، فيكون من راء ذلك فتنة[1].

وقد ذكر الأستاذ حسن البنَّا في ركن «العمل» من «رسالة التعاليم»: «إعادة الكيان الدولي للأمة الإسلاميَّة، بتحرير أوطانها، وإحياء مجدها، وتقريب ثقافاتها، وجمع كلمتها، حتَّى يؤدي ذلك كله إلى الخلافة المفقودة، والوحدة المنشودة». فترى فيه إيمانًا بالتدرج.

٤ ـ اعتبر الكاتب ما أدعو إليه «إمبراطوريَّة إسلاميَّة»، وهذا التعبير غير صحيح، لا بالنسبة للإسلام، ولا بالنسبة لما أدعو إليه، فالإسلام ليس إمبراطوريًّا، والخليفة أو الإمام ليس إمبراطورًا. إنَّما هو قائد لأُمَّة ورئيس لدولة، تحكم النَّاس بالعدل، وتقودهم بالحقِّ، ويخضع أعلاها وأدناها لحكم الشرع.

وأنا أدعو إلى هذا النظام في صورة عصريَّة، مستفيدين من تجارب التاريخ ومن نماذج الواقع، غير جامدين على شكل مُعيَّن، ولا نموذج خاصٍّ، ولا مقيَّدين إلَّا بالمبادئ الَّتي ألزمنا الله بها من الشورى والبيعة والعدل والتعاون على البرِّ والتقوى.

وما شاب هذا النظام في التطبيق من مثالب فليس هذا من طبيعة النظام، بدليل أنَّه وُجِد الخلفاء العادلون في مختلف العصور، ووُجِد الظالمون، ووُجِد الأقوياء، ووُجِد الضعفاء. على أنَّ الَّذين ألغوا نظام الخلافة لم يكونوا أشرف ولا أنظف ولا أعدل من الخلفاء الَّذين أسقطوهم، بل العكس هو الصواب، كما دلَّ على ذلك التاريخ.

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٢/٩٣، ٩٤)، تحقيق الشيخ عبد الله دراز، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

كما ذكر الأستاذ ياسين أنَّ من شأن هذا الحُلْم ـ كما سمَّاه ـ أن يُشعل نار الخلافات بين مختلف التيارات في مجتمعاتنا، فهذا ما لا نلتزمه، إلَّا أنْ تكون خلافات على المستوى الفكري. وهذا في مصلحة المجتمع وإثرائه. أمَّا أنْ ندَع الدعوة إلى ما نؤمن به لإرضاء التيَّارات الأخرى، فهذا ما لا يقول به عاقل، ولماذا لا يُطلب من الآخرين ذلك، ونحن الأصلاء وهم الدخلاء؟

إنَّنا نؤمن بمشروعيَّة التعدُّديَّة في ظل الاحترام لقواطع الإسلام الَّذي هو الأساس المعنوي لوجود الأُمَّة.

٥ ـ ما ذكره الكاتب من أنَّ أنصار التيار الإسلامي يعتقدون أنَّ رفع شعار «الإسلام هو الحل» من شأنه حل كافة مشاكل المجتمع، فهو من المبالغات المنكورة، فلا أنا ولا غيري يقول هذا. ولو قاله فهو مخطئ، وتغيير القوانين الوضعيَّة لا يُغيِّر وحده المجتمع، ولا يُحيي الأُمَّة الميِّتة.

ويسرُّني أنْ أذكر هنا ما كتبته في كتابي «أولويَّات الحركة الإسلاميَّة»: «هناك خطأ يجب التنبيه على تصحيحه في طرح الشعارات الإسلاميَّة والحلول الإسلاميَّة للجماهير الإسلاميَّة.

فحينما يتنادى الإسلاميون: الإسلام هو الحل، ولا صلاح لنا إلَّا بالإسلام، والإسلام هو سفينة الإنقاذ ممَّا نتخبط فيه من مشكلات اقتصاديَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة، يتصور جماهير الناس: أنَّ مجرد رفع هذا الشعار، وتأييد أصحابه ودعاته في الانتخابات وحصولهم على عدد كبير من المقاعد...، سيحل كل المشاكل المعلَّقة بعصا سحرية أو معجزة سماويَّة!

وهنا يتعيَّن على الإسلاميين ودعاتهم ومفكريهم أن يُبَيِّنوا للناس بوضوحٍ كافٍ: أنَّ الإسلام يحل مشكلات النَّاس عن طريق النَّاس

QaradawiBooks.com

أنفسهم، وأنَّ الله لا يُنزل عليهم ملائكة تقوم عنهم بزراعة الأرض، أو بتنمية الثروة الحيوانية أو السمكية، أو بتقوية الصناعة، أو بتنشيط التجارة، أو بإقامة هياكل البنية الأساسيَّة، أو بتجنيد طاقات الأُمَّة للعمل المنتج، وصرفها عن العبث وتبديد القوى.

إنَّ النَّاس هم الَّذين يقومون بهذا كله وبغيره، ممَّا تحتاج إليه الحياة الطيبة ويفتقر إليه المجتمع الصالح المعاصر، وتنشده الإنسانيَّة الراشدة.

لقد قال عمر بن الخطاب لمن قعدوا في المسجد متوكِّلين على الله: لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهمَّ ارزقني، وقد عَلِمَ أنَّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، إنَّ الله يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠][1].

إنَّ القرآن قد قرَّر بجلاءٍ هذه السُّنَّةَ الَّتي لا تتخلف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

وهذا هو المنطلق الأوَّل: تغيير ما بالأنفس من مفاهيم مغلوطة، وأفكار ميتة أو فاسدة، وأخلاق مذمومة، وصفات مرذولة، إلى مفاهيم صحيحة، وأفكار حيَّة وصالحة، وأخلاق محمودة، وصفات طيِّبة، يجب أن يتهيَّأ النَّاس لحياة غير الحياة الَّتي أَلِفوها: حياة إنتاج وعمل لا بطالة وكسل، حياة جِدٍّ لا هزل، حياة تقشُّف لا ترف، حياة عدل لا محاباة، حياة عَرَق لا دَعَة، حياة إصرار لا استرخاء»[2].

(١) إحياء علوم الدين (٦٢/٢)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة صـ ٥٠، ٥١، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

QaradawiBooks.com

٦ ـ أمَّا ما كتبه عن أثر هذا التيار الإسـلامي ـ الَّذي وصفه بالمثاليَّة ـ على السياسـة الخارجيَّة، وإمكان أن يضرَّ ذلك أبلـغ الضرر بالمصالح الوطنيَّة أو القوميَّة، فهو توهم لا رصيـد له من الواقع، وزعمه أنَّ انطلاق هذا التيار من اعتبار أنَّ اليهود أعداء خالدون للمسلمين باعتبارهم يهودًا، هو زعم لا أساس له من كتاب ولا سُنَّة، ولا فقه، وعداء المسلمين لليهود ليس من أجـل يهوديَّتهم، كيف وهـم أهل كتاب قد أبـاح الله مؤاكلتهم ومصاهرتهم كالنصارى؟ وكيف وقد عاشوا في رحاب دار الإسلام معزَّزين مكرَّمين حتَّى كان منهم كبار الموظفين والوزراء وذوي المال والسلطان؟

إنَّما العداء لليهود لأنَّهم غصبوا الأرض، وهتكوا العِرض، وسـفكوا الدم، وشـرَّدوا الأهل، وأي أرض؟ إنَّها أرض النبوات، وأولى القِبْلتين، ومسرى النبي الكريم؟

فالتيار الإسلامي لا يعارض السلام العادل والشامل، ولكنَّه يعارض السلام إذا كان في صورة استسلام، يعطي ولا يأخذ، ويُفرِّط في الحقوق، ويتساهل في الحرمات.

إنِّي لأعجب من الكاتب أن صنَّفني مقابل التيار العقلاني في الحركة الإسـلاميَّة! ولم يقل ذلـك أحد غيره فيمـا أعلم، وما هو هـذا التيار العقلاني المزعوم؟ إن كان الَّذي يرفض الاحتكام إلى الوحي فأنا بريء منـه، وإن كان الَّذي يوفِّـق بين العقل والنقـل، ويجمع بين السَّـلَفية والتجديـد، ويوازن بين ثوابت الشـرع ومتغيرات العصـر، فكل قرائي يعرفون موقعي منه، وهو التيار الَّذي أسـميه «تيار الوسطيَّة الإسلاميَّة»، وتلك هي أُسسه المعرفيَّة، الَّتي ادَّعى الكاتب أنَّها تجعله غير قادر على التعامل مع الحقائق والوقائع!

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لقد عاشت الأُمَّة قبل أنْ يزحف عليها الاستعمار في ظلِّ الخلافة، الَّتي كانت مظلَّةً لوحدتها، ثلاثة عشر قرنًا ونصفًا، ثمَّ فُرِض عليها تحت وطأة الاستعمار والنفوذ الأجنبي أنْ تعيش هذه السبعين عامًا الأخيرة بلا مظلة واقية، فكيف اعتُبِرت هذه المدة الأخيرة هي الأصل، ومدة عمرها الطويل هي الاستثناء؟

٧ ـ ثمَّ أريد أنْ أقول لأستاذ سيِّد ياسين: هب أنِّي كنت أحلم مع الحالمين بقيام دولة أو حتَّى إمبراطوريَّة إسلاميَّة كبرى يحكمها خليفة في ظل نظام شورى عصري، فهل من حَرَجٍ علىَّ أن أحلم مجرَّد حلم بالمستقبل؟!

إنَّ اليهود حلموا بإقامة دولة لهم، واستطاعوا أن يحققوا حلمهم بعد خمسين سنة، ولا زالوا يحلمون بدولة «إسرائيل الكبرى»؟ وأوربا تحلم بالبيت المشترك! والعالم في الشرق والغرب يحلم.

فلماذا تصادرون حقَّنا ـ نحن وحدنا ـ في مجرَّد الحُلم؟ وقد قيل بحقٍّ: حقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد.

إنَّ الحوار الَّذي يمارسه الكاتب مع التيار الإسلامي إذا سار على هذه الطريقة غير ذي جدوى؛ لأنَّه فقد الموضوعية والإنصاف، وهو يهدم ولا يبني، ويُفرِّق ولا يجمع، وإثمه أكبر من نفعه.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

التعقيب الثاني لسيِّد ياسين

الإمبراطوريَّة والخليفة:

في لحظة من لحظات الصدق مع النفس كشف الشيخ القرضاوي في حُلْمه الَّذي نشره كمقدمة للتقرير الخاصّ «بالأُمَّة في عام»، والَّذي يُعبِّر عن الحركة الإسلاميَّة وبغير أن يقصد عن المسكوت عنه في خطاب أنصار الإسلام السياسي؟

لقد أكَّدنا أكثر من مرَّة أنَّ الرؤية الأساسيَّة الَّتي يصدرون عنها وإن كانوا لا يعلنون ذلك أبدًا هو إقامة دولة دينيَّة يسيطر عليها مجموعة من الفقهاء باسم الإسلام، ويفرضون بفتاويهم الَّتي يصدرونها اتجاهاتهم ـ وفق قراءتهم للنصوص الدينيَّة ـ على الواقع الاقتصادي والسياسي والثقافي. بل إنَّنا زدنا وقلنا إنَّ محاولتهم أشبه بتأسيس مذهب لولاية الفقيه على الطريقة السُّنِّية، تقليدًا للمذهب الشيعي المعروف، والتي تُحْكَمْ على أساسه إيران في الوقت الراهن.

وها هو اليوم شيخنا الجليل يوسف القرضاوي الَّذي أخذ علينا وصفنا لحُلْمه بأنَّه غير واقعي، ولا يلقي أي اعتبار للحقائق المحليَّة والإقليميَّة والدوليَّة، ولا للحدود بين الدول، ولا لاختلافات المجتمعات الإسلاميَّة في التاريخ الاجتماعي، وفي الأفكار السائدة، بل في فهمها

للإسلام، ها هو يدافع مرَّة أخرى عن حُلْمه الوهمي في مقاله الَّذي نشره في الأهرام بتاريخ (٧ أغسطس ١٩٩٤م)، ويقول: أي حرج عليَّ أن أحلم مجرَّد حُلْم بالمستقبل؟

ونقول له: ليس عليك حرج إذا حلمت واحتفظت به لنفسك، أما وقد نشرته على الملأ كمقدمة لتقرير إستراتيجي إسلامي، فمن حقِّنا أنْ نناقش أولًا: مدى واقعيَّته وضعًا في الاعتبار الظروف الدوليَّة والإقليميَّة والمحليَّة، ثانيًا: مدى خطورة تأثير هذا النشر في الترويج لأفكارٍ قد تكون هي ذاتها وقودًا ومحركًا لحركات انقلابيَّة إسلاميَّة، لا ترى في هذا الحُلم وهمًا من الأوهام، وإنَّما تراه هدفًا جديرًا بالسعي لتحقيقه من خلال الحركة السياسيَّة، وهنا يقع المحظور، ويختلط الخيال بالواقع، وتحدث بلبلة فكريَّة كبرى، وقد تؤدي إلى صراعات دامية، تُحدث أمواجًا من الاضطراب السياسي في مجتمعاتنا الَّتي تسعى للخروج من دائرة التخلف.

عناصر الحكومة الدينيَّة:

ولأنَّ الشيخ القرضاوي لا يتعاطى السياسة، وإنَّما هو مشغول بالاجتهاد في مجال الفقه الإسلامي، فهو لم يلجأ إلى الصياغات السياسيَّة الَّتي يتبنَّاها أنصار الإسلام السياسي، ويُؤكِّدون عليها مؤخرًا، وأهمها إيمانهم بالديمقراطيَّة والتعدُّديَّة السياسيَّة وتداول السلطة، وقبول فكرة الدستور الوضعي الَّذي لا يتنافى مع الشريعة الإسلاميَّة، ومن هنا يمكننا القول بكل ثقة أنَّ المشروع الحقيقي لأنصار الإسلام السياسي يتمثَّل فيما نشره فعلًا الشيخ القرضاوي، والَّذي يقوم على تأسيس حكومات دينيَّة في كل بلد إسلامي بعد القضاء على الدولة العِلمانيَّة

QaradawiBooks.com

القائمة سواء بالعنف أو بالإجراءات الديمقراطيَّة، وزاد على ذلك الشيخ القرضاوي بأنَّ هذه الدولة الدينيَّة الإسلاميَّة ينبغي أن تكون عالميَّة، بمعنى جمع شمل الأُمَّة الإسلاميَّة في وحدة سياسيَّة جامعة يقوم الخليفة على رأسها ويساعده في ذلك «مجلس المجتهدين».

وهكذا يمكن القول: إنَّ عناصر الحكومة الدينيَّة الإسلاميَّة العالميَّة الَّتي يُنكر السعي إلى تأسيسها أصحاب الإسلام السياسي، في الوقت الَّذي يؤكِّدها فيه الشيخ ثلاثة:

الأوَّل: وحدة دار الإسلام، بمعنى تجمُّع كلِّ شعوب الأُمَّة الإسلاميَّة في كيان سياسي واحد، لا يعترف بالحدود القائمة، ولا بالملوك والأمراء والشيوخ والرؤساء الَّذين يرأسون هذه الدول، ولم يحدِّثْنا الشيخ القرضاوي عن كيف سيزيح كل هذا الطابور الطويل من الملوك والرؤساء المسلمين من طريقه لإفساح المسرح للخليفة حتَّى يحكم هذه الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة الشاسعة؟ هل سيعمد ـ كما زعم ـ إلى الدعوة للتغيير عن طريق الإقناع والتوعية والتثقيف؟

«تأمل محاولة إقناع الملوك والأمراء والشيوخ والرؤساء لكي يتنازلوا عن سلطاتهم ويسلموا دولهم لقيادة الخليفة الإسلامي الجديد»!

الثاني: وحدة المرجعيَّة العليا الَّتي تتجلَّى في الاحتكام إلى الكتاب والسُّنَّة في ضوء اجتهاد معاصر قويم، ويتمثل في صورة جماعة على مستوى الأُمَّة في صيغة «مجلس للمجتهدين»، وها نحن مباشرة في مواجهة العنصر الثاني من عناصر الحكومة الدينيَّة، ونعني ولاية مجموعة من الفقهاء لم يحدِّد لنا الشيخ القرضاوي طريقة اختيارهم، وتحكُّمهم في مسيرة المجتمع بالفتاوي الَّتي يصدرونها على الطريقة الإيرانية،

QaradawiBooks.com

حيث يتدخل الفقهاء في أمور السياسة والاقتصاد والثقافة، ممَّا من شأنه أن يؤدي إلى تردِّي الأوضاع، لأنَّ آلية الفتوى الَّتي تحدد غالبًا بناءً على قراءة رجعية محافظة ما هو الحلال والحرام يمكن أن توقف التطور، وتُجمِّد مسيرة المجتمع، لننظر إلى الفشل الذريع الَّذي يلاقيه الآن النظام الإيراني والنظام السوداني.

الثالث: وحدة القيادة المركزيَّة، أو بنصِّ تعبير القرضاوي «الرئاسة للأمة كلها»، وهي الَّتي تتمثل في «الخليفة» أو «الإمام»، الَّذي ينوب عن رسول الله ﷺ في إقامة الدين وسياسة الدنيا به.

ترى هل هناك أوضح في بيان عناصر الحكومة الدينيَّة من هذا النص، الَّذي لم يتورَّع فيه شيخنا القرضاوي عن أن يقرِّر بكل بساطة بأنَّ الخليفة سينوب عن الرسول ﷺ؟ وإذا كان نائبًا عن الرسول ألن تُضفَى عليه قداسة تمنع من مساءلته أو الاحتجاج على سياساته؟

غير أنَّ الدكتور القرضاوي بكلِّ علمه الغزير، لم يُفصِّل الحديث عن كيفيَّة اختيار الخليفة، وهنا لا بدَّ من إثارة عدد من الأسئلة:

هل سيتولَّى الخليفة منصبه بالتعيين أم بالانتخاب؟ ولو كان بالتعيين من الَّذي سيعينه؟ هل هو مجلس المجتهدين المقترح؟

أم إنَّه إيمانًا بقواعد الديمقراطيَّة سيتمُّ انتخاب الخليفة ديمقراطيًّا. وتظل هناك أسئلة: من له حقُّ الترشيح؟ وهل لا بدَّ أن يكون من رجال الدِّين، مع أنَّه لا كهانة في الإسلام، ولا احتكار في معرفة الشريعة، أم أنَّ أي مواطن عادي يمكنه الترشيح؟

وهل سيتمُّ تداول السلطة، بمعنى أنَّه سيتغيَّر الخليفة كلَّ فترة زمنيَّة، أم أنَّه ما دام قد جلس على كرسيِّ الخلافة، فلن ينزل عنه أبدًا؟

QaradawiBooks.com

كلُّ هذه أسـئلة مشروعة، نوجِّهها للشـيخ القرضاوي حتَّى يزيدنا علمًا بمشـروعه المسـتقبلي الكبير، والَّذي لا يرى فيه بعض أنصار الحركة الإسلاميَّة مجموعة من الأوهام والأماني، كما سبق أنْ وصفتُه. ومن أبرز هؤلاء أستاذنا الدكتور توفيق الشاوي أستاذ القانون والمفكر الإسـلامي المرموق في رسـالة وجَّهها إلـيَّ، وقرَّر أنَّـه اندهش من اعتراضي على نشـر حلم الفقيه القرضاوي في تقرير «الأُمَّة في عام» على أساس أنَّه لا يجوز الجمع بين الإستراتيجيَّة واليوتوبيا، ومقرِّرًا أنَّ الدكتور القرضاوي ليس أوَّل فقيه يدعو لإستراتيجيَّته بناء وحدة الأُمَّة الإسـلاميَّة، فقد سـبقه لذلك أكبر فقيه في العالم العربي في العصر الحديث، وهو الأسـتاذ الدكتور عبد الرزَّاق السنهوري في كتابه الَّذي وضعه بالفرنسيَّة في عام ١٩٢٦م، ونشرت ترجمته العربيَّة بعنوان «تطور الخلافة لتصبح عصبة أمم شرقيَّة».

ويقرَّر الدكتور الشاوي أنَّ إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي، ومجمع الفقه الإسـلامي، والمنظمة الإسـلاميَّة للفقه والعلـوم، بالإضافة إلى منظمات إسـلاميَّة أخرى فيه ترجمة لهذه الدعوة الَّتي سبق بها الدكتور السنهوري.

وردُّنا على الدكتور الشاوي أنَّ السـنهوري أدرك بغزير علمه حقائق النظام الدولي، ولم يدع إطلاقًا إلى اسـتعادة نظـام الخليفة القديم كما يدعو الشيخ القرضاوي بكلِّ صراحة.

الشيخ القرضاوي يدعو إلى إعادة تأسـيس الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة وتنصيب الخليفة على رأسها. وهذا هو الحُلْم الَّذي نعتناه بأنَّه مجموعة من الأوهام والأماني. وليس هناك ما يمنع من قيام منظمات إسلاميَّة في

QaradawiBooks.com

كافة المجالات كما يقترح الدكتور الشـــاوي حتَّى ندخل عالم التكتلات الدوليَّـــة موحَّدين لا متفرِّقيـــن. ولكن هذا الاقتراح مختلـــف تمامًا عن الأوهام الَّتي يصرُّ عليها شيخنا الجليل القرضاوي.

وهو يطمئننا بأنَّ هذه الأفكار لن تـــؤدي إلى اختلافات أو صراعات سياســـيَّة، ولن تتلقَّفها جماعـــات تؤمن بالعنف. غيـــر أنَّ هذه العبارات المطمئنة تخالفهـــا الوقائع. فما كنَّا نظنُّ حين عبَّرنـــا عن تخوفاتنا ـ من خلال الاستنتاج المنطقي لا أكثر ولا أقل ـ أنَّ الأحداث ستؤكِّدها.

اليوتوبيا والعمل السياسي:

حملت إلينا وكالات الأنباء تحليلًا مطولًا لمؤتمرٍ إسلاميٍّ هامٍّ عُقِدَ في لندن وحضره حوالي ثمانية آلاف مسلم الغرض منه الدعوة إلى إنشاء «دولة إســـلاميَّة عالميَّة واحدة»، وقد جاء في تقريـــر وكالات الأنباء أنَّ المؤتمر دعا إلى تأســـيس هذه الدولة والقضاء على دولة إسرائيل. وقد دعا بعض أعضاء المؤتمر إلى قلب النظام السياسي في كلٍّ من السعوديَّة والعراق على أســـاس أنَّ المعارضة ليس مســـموحًا بها هناك. وقد نظم المؤتمر الَّذي انعقد في «ويمبلي» منظمة الوحدة الإسلاميَّة، وهي منظمة تضم عددًا من الجماعات الإســـلاميَّة المتوزعة في أنحـــاء العالم والتي تهدف إلى تأسيس حكومة إسلاميَّة واحدة.

وقد تحدَّث أحد أعضاء المؤتمر وهو الدكتور محمَّد الملكاوي مقرِّرًا أنَّ الإسلام نظام أسمى من كل النظم، وهو يستطيع أن يعيش بمفـــرده وعلى هُدًى من أُسُسِـــه، ثـــمَّ أضاف: «الحكم الإســـلامي لا يستطيع أن يتعايش مع أي نظام آخر كالاشـــتراكيَّة أو الرأسماليَّة والديموقراطيَّة».

وقد أصدر المؤتمر مجموعة من التوصيات من بينها وردت العبارة التالية: «كل النظم في العالَم الإسلامي ليس لها أي شرعيَّة وفقًا للشريعة الإسلاميَّة».

وتوصية أخرى تقرر: «ليس هناك سلام مع دولة إسرائيل ولا بدَّ من إزالة هذه الدولة»، وتؤكد أنَّ كل المفاوضات والاتفاقات مع إسرائيل غير قانونية.

وقرَّرت وكالات الأنباء في تقريرها التحليلي عن المؤتمر أنَّه يعد من أكبر المؤتمرات الإسلاميَّة الَّتي عُقِدت خارج الشرق الأوسط وحضرها أعضاء من دول إسلاميَّة شتى من الباكستان حتَّى البوسنة. وقد نشرت جريدة «الجارديان» تصريحات لأحد أعضاء المؤتمر رفض أن يفصح عن اسمه وهو من باكستان أعلنه في المؤتمر وجاء فيه: «نعم نحن أصوليُّون لا نستطيع أن نجري أيَّ مساومات حين يصل الأمر إلى الإسلام، غير أنَّنا لسنا إرهابيِّين، وينبغي علينا أن نعمل كل ما في وسعنا لكي ننشئ السيطرة الكاملة للخليفة على الأُمَّة، في دولة إسلاميَّة عالميَّة لا تقوم على أساس القوميَّة».

وهكذا ـ وعلى غير توقُّع منَّا بالمرَّة ـ يجيء خبر هذا المؤتمر، لكي يؤكِّد ما قلناه أنَّ ما يُنشر ويُروَّج له حتَّى باعتباره حُلْمًا يمكن أن يتحول في الواقع العملي، إذا تبنَّاه مجموعة من الأنصار المتحمِّسين إلى حركات فكريَّة وسياسيَّة تسعى إلى تغيير الواقع في البلاد الإسلاميَّة بطرق انقلابيَّة، ومن خلال العنف الَّذي سيعتبر مشروعًا ومبررًا، ما دام الهدف الأسمى هو إعادة تأسيس الفردوس المفقود، ونعني نظام الخلافة الَّذي يتأسَّى الشيخ القرضاوي كثيرًا على اندثاره، ويدعو إلى استعادته.

QaradawiBooks.com

ويقرِّر الشـــيخ القرضاوي بهذا الصدد: «ذلك أنَّ أســـاس المشروعيَّة لدولنا الإقليميَّة والقوميَّة الحديثة والمعاصرة الَّتي تضمها جامعتنا العربيَّة أو ينتظمها ما سُمِّي «منظمة المؤتمر الإسلامي» أساس واهٍ ضعيف، من وجهة النظر الإســـلاميَّة الخالصة. وفي أوَّل تجربة أو امتحان، اهتزَّ هذا الأساس، بل أوشك أن ينهار؛ لأنَّه يفتقد المشروعيَّة العقائدية العليا الَّتي تســـنده، وتمنحه مبرر الوجود والبقاء»، ويضيف: «لقد كان للمســـلمين خليفة يناديهم في الأزمات أن هبُّوا، وكان يســـتنصر به المستضعفون إذا أُغير عليهم، ويحسب حسابه الخصوم إذا فكروا في اقتحام حماهم».

واليوم لم يَعُدْ لهم مـــن يُمَثِّلهم ولا لهم «بابـــا» كـ «بابا النصارى» فلا قيادة سياســـيَّة ولا قيادة دينيَّـــة. لقد ضيَّع المســـلمون الخلافة، ولم يستطيعوا أن يوجدوا نظامًا بديلًا.

وهكذا يَحْلُم القرضاوي بإعادة تنصيـــب الخليفة على الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة الجديدة الَّتي ستتكوَّن من الأقطار الَّتي يراها متصلة متشابكة بعضها موصول ببعض، من «جاكارتا» شرقًا إلى «رباط الفتح» غربًا، أو من المحيط الهادي إلى الأطلسي.

الحلم وصدمة الواقع:

يأخذ علينا الشيخ القرضاوي نَعْتَنا لنمط فكره بأنَّه مثالي، ويقول: إنَّه من أنصار الوسطيَّة الإسلاميَّة، والحقيقة إن لم يكن حُلْمه المنشور يعبِّر عن فكر مثالي خالص مفارق للواقع، فماذا تكون المثاليَّة إذن؟ وأين هي العقلانية، في تخيُّل أنَّ الحدود بين الدول الإســـلاميَّة ـ الَّتي لا يربطها ببعضها رابط إلَّا في الاشـــتراك في الديانة ـ ستزول، وسيختفي الملوك والأمراء والمشايخ والرؤساء وسيبقى الخليفة فقط على رأس الأُمَّة؟

QaradawiBooks.com

وألا يُعَد ذلك تجاهلًا للواقع والاختلافات العميقة في قراءة الإسلام، وفي الممارسة الإسلاميَّة؟ وهل يمكن تجاهل الفروق بين الشيعة والسنة حتَّى على مستوى العقائد؟ وهل يمكن القفز حول الخصوصيات الثقافيَّة المتنوعة، ومراحل التطور المتباينة في المجتمعات الإسلاميَّة؟

وإذا كان الشيخ القرضاوي يستهين بكل التحديات والعقبات الَّتي تقف دون تأسيس إمبراطوريَّة إسلاميَّة موحَّدة برئاسة الخليفة، فإنَّنا سنطلب منه، هو وأنصار مشروع الإسلام السياسي الَّذين يكثرون من الحديث عن وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة، مع أنَّ الواقع يؤكِّد توزعها بين مذاهب واتِّجاهات شتَّى: أن يدلِّل على قدراته التوحيديَّة الجبَّارة، لحلِّ مشكلة أفغانستان الَّتي يتقاتل فيها فريقان مسلمان يحتكم كلٌّ منهما إلى نفس المرجعيَّة العليا: القرآن الكريم وسُنَّة الرسول ﷺ، هل يمكن له من خلال الوساطة أن ينهي الخلاف الدموي بين رباني وحكمتيار؟ ألم تذهب وفود من ممثلي تيار الإسلام السياسي للسعي في هذا الاتجاه ولم تعد بغير الفشل؟

أنعجز عن التوفيق بين ربَّاني وحكمتيار وندَّعي القدرة على تأسيس الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة وبإعادة تنصيب الخليفة؟

وبعد، في ضوء تقديرنا البالغ لاجتهادات شيخنا يوسف القرضاوي في مجال الفقه، نؤكِّد له أن لا كهانة في الإسلام، ومن هنا فاختلافنا في الرأي لا يرد إلى نقص في المعرفة كما زعم، فمعرفة الشريعة الإسلاميَّة ليست حكرًا على المشايخ، ولا إلى أفكار قديمة نتشبَّث بها، لأنَّنا ننظر إلى المستقبل، ولا نميل إلى التعبُّد في إطار تجارب الماضي الَّتي تجاوزها التاريخ.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

ردٌّ على مقال «الإمبراطوريَّة والخليفة»

عاود الأستاذ سيِّد ياسين الكتابة في أهرام الاثنين (١٥ أغسطس ١٩٩٤م) حول ما أسماه «الإمبراطوريَّة والخليفة»! معقِّبًا على ردِّي المنشور في الأهرام (٧ أغسطس ١٩٩٤م)، ومُصِرًّا على نعت ما كتبته بالحُلْم والمثاليَّة والبُعْد عن الواقع. ولي على المقال جملة ملاحظات أجمل أهمها فيما يلي:

١ ـ لا أدري: مَن البعيد عن الواقع حقًّا؟ الَّذي يُعَبِّر عن ضمير الأُمَّة، ويترجم عن أفكارها ومشاعرها، أم الَّذي يتجاهل ذلك ويتناساه وكأنَّما يتحدَّث عن أمة أخرى؟

إنَّ أي مسلم عرف القليل من أحكام دينه، يؤمن أنَّه ينتمي إلى أمة كبرى ظهرت بظهور الإسلام، وأنَّها خير أمة أخرجت للناس، وأنَّ الخطباء في الجُمع يدعون الله أن يصلح أحوالها، وينصرها على أعدائها، وما ذكرته من وحدة دار الإسلام، ووحدة المرجعيَّة العليا، ووحدة القيادة العليا، ليست أحكامًا من اختراعي، إنَّما هي أحكام شرعيَّة مقرَّرة، ومتفق عليها بين مذاهب المسلمين.

فليسأل الأستاذ ياسين الأزهر ومجمع البحوث الإسلاميَّة ومجامع الفقه الإسلامي، وأساتذة الجامعات الإسلاميَّة في العالم الإسلامي كله

QaradawiBooks.com

عن حكم نصب الإمام أو الخليفة، وسيجد إجابة الجميع واحدة، وهي أنَّه فرض واجب شرعًا. وكان هذا يدرَّس لنا في الأزهر في كتب التوحيد، وكنَّا نحفظ ـ ونحن طلَّاب ثانوي ـ منظومة الجوهرة في العقائد، وفيها يقول الناظم:

وواجبٌ نَصْبُ إمامٍ عَدْلِ بالشَّرْعِ فاعْلَمْ لا بحُكْمِ الْعَقْلِ[1]

وإذا لم يكن للمسلمين إمام، فهم آثمون؛ لأنَّهم عطَّلوا فرضًا كفائيًّا مفروضًا على الأُمَّة في مجموعها، وفي ذلك ورد الحديث الصحيح عن ابن عمر: «**من لقي اللهَ وليس في عنقه بيعةٌ لإمام، مات مِيتَةً جاهليَّة**»[2].

ولا يعفي المسلم من هذا الإثم إلَّا أنْ يسعى مع الساعين لسدِّ هذه الثُّغرة.

فإذا كنَّا نريد أنْ نكون واقعيين حقًّا «في نظر الكاتب»، فلنحذف هذا ـ إن استطعنا ـ من كتب العقائد، وكتب الفقه، وكتب التفسير والحديث، ونُحرِّم تدريس هذا للمسلمين في المعاهد والمساجد! أمَّا أن يظل المسلمون يعتنقون هذه الأفكار ولا يجدون من يُعبِّر عنها، فهذا أبعد ما يكون عن الواقعيَّة.

٢ ـ خلط الأستاذ ياسين بين ما هو ديني وما هو إسلامي، واعتبرهما شيئًا واحدًا، وجعلني من الداعين إلى «حكومة دينيَّة»، بل أزيد عليهم بكونها «حكومة عالميَّة».

---

(١) انظر البيت وشرحه في شرح الصاوي على جوهرة التوحيد صـ ٤٢٤ ـ ٤٢٦، تحقيق عبد الفتاح البزم، نشر دار ابن كثير، دمشق وبيروت.

(٢) سبق تخريجه صـ ٣٨.

QaradawiBooks.com

وأنا فعلًا أدعو إلى حكومة إسلاميَّة، لا حكومة دينيَّة «ثيوقراطيَّة»، فالحكومة الدينيَّة هي حكومة الكهنة، والإسلام لا يعرف الكهانة. والحكومة الإسلاميَّة حكومة مدنية تحتكم إلى الإسلام، وتعتبره مرجعًا أعلى لها. والمعرفة بالشريعة ليست حكرًا على أحد، كما قال الكاتب، إنَّما هي علم ودراسة مَن حَصَّلها فهو أهل أن يفتي ويقضي ويُعلِّم.

وأبو بكر وعمر وغيرهما لم يكونوا كهنة، إنَّما كانوا رجال دولة من الطراز الأول. ووجود «مجلس للمجتهدين» لا يعني أنَّه هو الَّذي يقود الدولة في كل شيء، إنَّما يرجع إليه في المشتبهات، كما رأينا الدولة المصرية رجعت إلى الأزهر في قضية «مؤتمر السكان»، لتعرف ما يقبله الدين منه وما يرفضه، وقال الرئيس مبارك: لن نوافق في المؤتمر على شيء يتعارض مع شريعتنا وقيمنا.

كما ينبغي أنْ يضمَّ مجلس المجتهدين ـ مع فقهاء الشريعة ـ متخصصِّين على أعلى مستوى في الاقتصاد والسياسة والطبِّ والعلوم وشؤون الحياة الأخرى.

والرجوع إلى أهل الاجتهاد لا يعني أنَّ الدولة دينيَّة، بل يعني أنَّها ملتزمة بأصول شريعتها، إلَّا إذا أريد لها أنْ تحلَّ ما حرَّم الله، وتحرِّم ما أحلَّ الله، وتُسقط ما أوجب الله.

إنَّ الإسلام أوسع من الِّدين، وقد اعتبر الأصوليُّون «الدِّين» إحدى «الضروريَّات الخمس» الَّتي جاءت شريعة الإسلام بالمحافظة عليها وهي: «الدِّين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال». فلا يجوز تعمُّد الخلط بين الإسلامي والديني، واعتبار الدولة الإسلاميَّة دولة دينيَّة بالمعنى الَّذي عرفه التاريخ الأوربي.

QaradawiBooks.com

وقد علَّق الكاتب على قولي عن «الإمام» أنَّه الَّذي ينوب عن رسول الله في إقامة الدين وسياسة الدنيا به: أنَّ هذا يضفي عليه «قداسة»، تمنع من مساءلته أو الاحتجاج على سياسته.

وهذا التعريف للإمام ليس من عندي، إنَّما هو قول الأئمَّة: الرازي والتفتازاني وابن خلدون وغيرهم[١]. وهو لا يضفي أي قداسة أو عصمة لأحد، فقد قال الخليفة الأوَّل: إن رأيتموني على حقٍّ فأعينوني، وإن رأيتموني على باطلٍ فسدِّدوني[٢]. وقد رفض أن يُسمَّى خليفة الله، وقال: «أنا خليفةُ رسول الله»[٣].

وقال الخليفة الثاني: «من رأى منكم فيِّ اعوجاجًا فليقوِّمني»[٤].

وقال عمر بن عبد العزيز: «إنَّما أنا واحد منكم غير أنَّ الله جعلني أثقلكم حِملًا»[٥].

٣ ـ وما ذكره الكاتب عمَّن سمَّاهم «أنصار الإسلام السياسي»! وإيمانهم بالديمقراطيَّة والتعدُّديَّة السياسيَّة، وتداول السُلْطة، وقبول دستور وضعي لا يتنافى مع الشريعة فأنا معهم في هذا، وربما كنت في

(١) انظر: الماوردي في الأحكام السلطانية والولايات الدينية صـ ١٥، نشر دار الحديث، القاهرة، وشرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني (٢٧٢/٢)، نشر دار المعارف النعمانية، باكستان، ومقدمة ابن خلدون (٦٨٨/٢)، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، نشر لجنة البيان العربي، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٦م.

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة (٦٦١/٢)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٨٣/٣)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٦٨م.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٢٩).

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات (٣٤٠/٥)، والدارمي في المقدمة (٤٣٣).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

طليعة الداعين إلى هـذا كلِّه، انطلاقًا من الإسـلام وفـي إطار أصوله ومقاصده، وقد تحدثت عن هذا بتفصيل في كتبي وبخاصة الجزء الثاني من كتابي «فتـاوى معاصرة»، وقد ذكـرت فيه أنَّ جوهـر الديمقراطيَّة لا يتناقض مع جوهر الشورى في الإسلام، ورددتُ على الَّذين يتوهَّمون أنَّ الإسـلام ضدَّ الديمقراطيَّة بإطـلاق، كما وضَّحتُ شـرعيَّة التعدُّديَّة السياسيَّة بضوابطها، وقلت: إنَّ تعدُّد الأحزاب في مجال السياسة، أشبه بتعدُّد المذاهب في مجال الفقه، وأنَّ الأحزاب مذاهب في السياسة، كما أنَّ المذاهب أحزاب في الفقه. وأنَّ عليَّ بن أبي طالب أقرَّ بوجود حزب الخوارج إذا لم يُشهروا عليه سيفًا.

٤ ـ ألزمني الكاتب ما لا ألتزمه، وهـو: الطفرة، والقفز فوق الواقع، وكأنَّني أطالب بإقامة الخلافة المنشودة اليوم أو غدًا. إنَّني أومن بالتدرُّج وأعتبره سُنَّة كونية، وسُنَّة شرعيَّة، ولا بدَّ من بذل الجهود لإزالة العوائق، وتقريب الثقافات، والبدء بما هو أيسـر وأقـرب «أي بالنواحي الثقافيَّة والاقتصاديَّة»، وصولًا إلى ما هو أصعب وأبعد «في النواحي السياسيَّة»، يقوم بذلك المتخصِّصون في كل موقع.

ولم أدعُ إلى عـودة نظام الخلافة بصورتـه القديمة ولا إلى الوحدة بصورتها التقليديَّة، فقد تكون وحدة اندماجيَّة أو فيدراليَّة، أو كونفدراليَّة، أو غيرها من الصور الَّتي يصل إليها اجتهاد البشـر، لتحقيق مصالحهم المشتركة، ثمَّ تتطور بتطور الزمن وقوة عوامل الوحدة بين أقطار الأُمَّة.

ووجود الملوك والأمراء والشيوخ والرؤساء، لا يعني إلغاء سلطانهم المحلـي، فالأمر لا يمكـن أن يتصوَّر بهـذه السـذاجة، ولكن الآمال والأحلام الكبيرة ينبغي أن تعلو على الواقع.

QaradawiBooks.com

ونحن ـ مع دعاة القوميَّة العربيَّة ـ نؤمن بالوحدة العربيَّة، ونراها قدَرَ هذه الأُمَّة، وهي مقدِّمة ضروريَّة للوَحدة الإسلاميَّة، فهل يمنع العروبيِّين والإسلاميِّين من هذا الحُلْم المشـــروع: وقوفُ هذا الطابور الطويل من الملوك والرؤساء والمشـــايخ والأمراء من العرب المتشبِّثين بسلطانهم؟ بل هذا الواقع المُزري الَّذي مزَّق الأُمَّة شـــرَّ مُمَزَّق، ولا سيَّما بعد كارثة الخليج وآثارها؟

٥ ـ قال الأســـتاذ: إنَّني لم أفصِّل الحديث عن كيفية اختيار الخليفة: أيكون بالتعيين؟ ومن له حق التعيين؟ أم بالانتخاب؟ ومن الَّذي له حق الترشـــيح؟ وهل لا بدَّ أن يكون من رجال الدين، مـــع أنَّه لا كهانة في الإسلام، ولا احتكار في معرفة الشـــريعة أم أنَّ أيَّ مواطن عادي يمكنه الترشيح؟

وأقول للأســـتاذ ياسين: إنِّي لم أُفَصِّل ذلك لســـببَيْن، الأوَّل: إنِّي لم أكتب بحثًا عن نظام الخلافة أو النظام السياسي في الإسلام، إنَّما كتبت مقدمة عن الأُمَّة المسلمة باعتبارها حقيقة لا وهمًا. والثاني: أنَّه ليس من حقِّي أن أحتكر هذا التفصيل لنفســـي، إنَّما هو حق الأُمَّة ممثَّلة في أهل الحَلِّ والعَقْد فيها، تختار ما تراه أنســـب لظروفهـــا ومرحلة تطورها، قد يكون في شكل مجلس رئاســـة منتخب، وقد يكون واحدًا من الرؤساء الموجودين يتناوبون الرئاسة، وقد تختاره برلمانات هذه الدول ومجالس شوراها، وقد يكون باســـتفتاء عام من درجة معيَّنة، ومن حقِّ أي مسلم استجمع الشروط أن يُرَشِّـــح نفسه، والشـــروط معروفة تجمع الصفات العلميَّة والعقليَّة والخلقيَّة، ولا بدَّ من وضع نظام أساسي أو دستور يحدِّد ذلك ويحترمه الجميع، والمسلمون عند شروطهم.

QaradawiBooks.com

ولم يقل أحد: إنَّ إمام المسلمين أو رئيس دولتهم يجب أن يكون من رجال الدين! فليس في الإسلام رجال دين أو كهانة، كما قال الكاتب بحق. والنظام الإيراني له طبيعته الخاصَّة، والنظام السوداني الَّذي أشار إليه الكاتب لا يحكمه من يسمِّيهم رجال الدين، ونسمِّيهم: علماء الدين.

وتداول السُلْطة أمر مطلوب، ولا سيَّما في عصرنا، وليس في السياسة الشرعيَّة ما يمنع منه. والسوابق التاريخية ليست ملزمة شرعًا لنا، فقد ذكر المحقِّقون أنَّ فعل الرسول نفسه لا يلزم مَن بعد من الخلفاء، ولهذا خالفه عمر في عدم تقسيم أرض العراق المفتوحة على الفاتحين، كما قسم النبيُّ ﷺ خيبر، لأنَّ الرسول الكريم فعل ما هو الأصلح في زمنه، وعمر فعل ما هو الأصلح في زمنه، كما قال العلَّامة ابن قدامة[1].

٦ ـ أما ما ذكره الأستاذ عن مؤتمر لندن وما قيل فيه، فلم يخفَ عليَّ أمره، وهو يؤكِّد أنَّ القضية الَّتي تناولتُها حيَّة وليست ميِّتة، وأنا أعلم أنَّ هناك من يقول: لو قام داعٍ للخلافة في ألبانيا لوجب على أهل إندونيسيا أن يطيعوه! وفصائل الغلوِّ والتنطُّع والعنف في التيار الإسلامي موجودة بالفعل، ولا يقاومها شيء مثل الفكر الإسلامي الرشيد، الَّذي يؤمن بثبات الأهداف، وتطور الوسائل، ويشدِّد في الأصول وييسِّر في الفروع، ويوازن بين مُحْكَمات الشرع ومقتضيات العصر، يستلهم الماضي، ويعايش الحاضر، ويستشرف المستقبل، وهذا هو «تيار الوسطيَّة

(١) المغني لابن قدامة (١٨٩/٤)، نشر دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

الإسلاميَّة» الَّذي ندعو إليه، أمَّا مقاومة هذه الفصائل بالحذف أو بالعنف، فما أظنُّه يُجدي.

٧ ـ أمَّا ما ذكره الكاتب عن النزاع في أفغانستان، وعجز الجماعات الإسلاميَّة عن التوفيق بين ربَّاني وحكمتيار، فهو يؤكِّد ما قلته، من حاجة الأُمَّة المسلمة إلى قيادة أو سُلْطة عليا، تملك أنْ تقول فتُسمع، وتأمر فتُطاع، كما تملك حقَّ العقوبة للمخالف الباغي وتأديبه. وقد قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٩]، فمن الَّذي يملك القوَّة المادِّيَّة الَّتي تقاتل الباغي حتَّى يفيء إلى أمر الله، إن لم يكن هو الإمام؟

٨ ـ أنكر الكاتب نقص معرفته بالإسلام، وهو ما نتمنَّاه، وأكَّد أنَّ معرفة الشريعة ليست حكرًا لفئة، وهو ما نؤمن به. فمن حقِّ كلِّ مسلم ـ بل من واجبه ـ أنْ يتفقَّه في دينه، وأن يتلقَّاه من مصادره الأصيلة، ومن أهله الثقات، وبأدواته المنضبطة، وأن يسأل أهل الذكر فيما أشكل عليه، حتَّى لا يقول على الله ما لا يعلم، فليس في العلم كبير: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

وبهذه المناسبة أنصح الأستاذ ياسين أن يعيد قراءة ما كتبت بروح أخرى، بل أدعوه مخلصًا أن يقرأ ما كتبته وكتبه الإسلاميون الأصلاء من دعاة الوسطيَّة، فمشكلته ومشكلة نظرائه: أنَّهم لا يقرؤون ما نكتب، في حين نقرأ نحن ما يكتبون!

ومن حُسن الحظ أنَّ الموضوع الَّذي كتبت فيه ينعقد (وأنا أكتب ردِّي هذا) مؤتمر كبير بشأنه في الإسكندرية، هو المؤتمر العام للشؤون

QaradawiBooks.com

الإسلاميَّة، يحضره ممثلون عن مائة دولة، ويوجه الرئيس فيه كلمة، يدعو فيها إلى ضرورة حل النزاعات، وتوحيد الأُمَّة الإسلاميَّة، والمؤتمر ينعقد تحت شعار «الأُمَّة الإسلاميَّة واقعها ومستقبلها». فهل يتفضَّل الكاتب بأنْ ينصحهم بالبحث عن موضوع آخر، فإنَّ الأُمَّة الَّتي يتحدَّثون عنها وَهْم لا حقيقة!

هذه كلمتي الأخيرة في الموضوع، ولن أعود إليه مرَّة أخرى. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

خاتمـــة

ليســـمح لي القارئ الكريم أن أضع في هذه الخاتمة خلاصة مقدمة لكتاب شـــهير وخطير، ترجم إلـــى العربيَّة أخيرًا، وهو كتـــاب «الدولة اليهودية» لمؤلفه «تيودور هرتسل» الَّذي نشر لأول مرَّة (سنة ١٨٩٦م) أي من نحو قرن من الزمان، يقول المؤلف: «إنَّ الفكرة الَّتي طوَّرتها في هذا الكتيب فكرة موغلـــة في القِدَم، هي فكرة اســـتعادة الدولة اليهودية. إنَّ العالم يـــردِّد صيحات صاخبة ضـــدَّ اليهود، وهذه الصيحـــات هي الَّتي أيقظت الفكرة من سُباتها.

وأودُّ في بادئ الأمر أنْ يكون مفهومًا بشكل جَليٍّ أنَّ حجَّتي لا تنبني في أي من أسانيدها على اكتشـــاف أمر جديد، فأنا لم أكتشف الأوضاع التاريخية لليهود ولا الوسائل لتحســـين تلك الظروف. وفي الحقيقة فإنَّ كل إنسان يستطيع أن يرى بنفسه أنَّ عناصر الفكرة الَّتي أقوم بالتخطيط لها ليست موجودة فحسب ولكنَّها حقًّا ظاهرة للعيان. ومن ثَمَّ فإنَّ هذه المحاولة لحل المشكلة اليهودية يمكن وصفها بكلمة واحدة: «توليفة»، ولكنَّها بالتأكيد ليست خيالًا.

لا بـــدَّ لي ـ بصفة مبدئيَّـــة ـ أن أجنِّب مشـــروعي أن يعاملـــه النُقَّاد الســـطحيُّون على أنَّه «يوتوبيا»، فإنَّهم أحرى أن يرتكبوا هذا الخطأ في

QaradawiBooks.com

التقدير ما لم أبادر إلى تحذيرهم. ومن الواضح أنَّني لن أكون قد فعلت شيئًا أخجل منه لو أنَّني صوَّرت هذه اليوتوبيا على أسس إنسانيَّة...

أمَّا المشـــروع الَّذي أطرحه الآن فإنَّه ينطوي على توظيف قوة دافعة موجودة بالفعل، وســـوف أقتصر على الإشـــارة إلى التروس والعجلات الخاصَّة بالآلة الَّتي نريد بناءها وسوف أعتمد على المهندسين المهرة في تركيبها أكثر من اعتمادي على نفسي.

إنَّ كلَّ شـــيء يعتمد على قوَّتنا الدافعة، ولكن ما هي قوَّتنا الدافعة؟ إنَّها بؤس اليهود؟ فمن يجـــرؤ على إنكار وجوده؟ إنَّني ســـأناقش هذا كاملًا في الفصل الخاص بأسباب العداء للسامية.

كلُّنا يألف ظاهرة قـــوة البخار الَّتي يولِّدها المـــاء الَّذي يغلي فيرفع غطاء الغلَّاية، هذه الظاهرة الخاصَّة بغلَّاية الشاي هي محاولات الصهاينة والجمعيات الصهيونية لكبح جماح العداء للساميَّة. ومن ثَمَ فإنَّني أعتقد أنَّ هذه القوَّة إذا أمكن اســـتخدامها بإحكام فإنَّها كافية لدفع آلة ضخمة تحمل الركاب والبضائع... هذه الآلة ستتخذ أيَّ شكل ممَّا يختاره الناس.

إنَّني علـــى يقين تامٍّ أنَّني علـــى حقٍّ وإن كنت أشـــكُّ فيما إذا كنت سأبقى حيًّا لأرى الأيام تبرهن على ذلك[1]، أمَّا أولئك الَّذين سيكونون أوَّل من يفتتح هذه الحركة، فمن النادر أن يبقوا على قيد الحياة ليشهدوا نهايتهـــا العظيمة، ولكن افتتاحهـــا في حدِّ ذاته يكفي لمنحهم الشـــعور بالفخر والسعادة بالتحرُّر الروحي.

(١) توفي هرتسل في (٣ يوليو ســـنة ١٩٠٤م) بعد أن تجاوز الرابعة والأربعين من عمره، أي أنَّه ألَّف الدولة اليهودية في سن الخامسة والثلاثين.

QaradawiBooks.com

لن أطيل في وصفٍ جماليٍّ مفصَّلٍ لمشروعي خشية إثارة الشك في أنَّني أؤلف «يوتوبيا»، وعلى أي حال فإنني أتوقع أنَّ بعض الساخرين الَّذين لا فكر لهم سوف يُصوِّرون مشروعي بصورة هزلية، وبذلك يحاولون إضعاف أثره. لقد شرحت مشروعي ليهودي على قدر من الذكاء في مجالات أخرى ـ فكان رأيه: أنَّ مشروعًا تمثَّلت تفاصيله المستقبلية كأنَّها واقع هو مشروع طوباوي.

وهذه مغالطة، فكل وزير ماليَّة يحسب في ميزانيته تقديرات لأرقام افتراضية، ولا يعتمد فقط على الأرقام المستمدة من متوسطات عوائد السنوات السابقة، ولا على العوائد في الدول الأخرى... فهل يمكن اعتبار مسودة الميزانية يوتوبيا!؟

إنَّ لي عند قرائي توقعات أكبر، فأنا أطلب من المثقفين الَّذين أخاطبهم أن يضعوا جانبًا كثيرًا من الآراء الَّتي كوَّنوها في الماضي، بل إنَّني أذهب أبعد من ذلك لطلب من أولئك اليهود الَّذين حاولوا ما في وسعهم حل المشكلة اليهودية أن ينظروا إلى محاولاتهم السابقة على أنَّها خطأ ولا فائدة منها.

ولا بدَّ لي هنا وأنا أستعرض آرائي أن أتحفظ تجاه خطر ما، فإذا وصفت الأوضاع المستقبلية بحذر شديد فسوف أبدو كأنِّي أشك في إمكان حدوثها، ومن ناحية أخرى لو أنَّني أعلنت بتأكيد أكبر ممَّا ينبغي فسوف أبدو كأنَّما أصف وهمًا، ومن ثمَّ فسوف أقرِّر بوضوح وتأكيد أنَّني أومن بالناتج العملي لمشروعي، ولكن دون أنْ أتنبَّأ أنَّني قد اكتشفت الشكل الَّذي قد يتخذه في النهاية.

إنَّ الدولة اليهوديَّة ضروريَّة للعالَم ولذلك فسوف تقوم.

QaradawiBooks.com

إنَّ الخطة قد تبدو بطبيعة الحال غير معقولة إذا حاول معالجتها شخص بمفرده، ولكن إذا توفر عليها عدد من اليهود متعاونين فقد تبدو معقولة تمامًا، ولن ينطوي إنجازها على صعوبات تستحقُّ الذكر، إنَّ نجاح الفكرة يعتمد فقط على عدد مؤيِّديها.

لعلَّ شبابنا الطموح ـ وقد أصبح كل طريق أمامه للتقدم مغلقًا ـ يرى في هذه الدولة اليهودية مستقبلًا مشرقًا بالحرية والسعادة والشرف مفتوحًا أمامهم، فيحرص على نشر الفكرة.

إنَّني أشعر أنَّني بنشر هذا الكتيب تكون مهمتي قد انتهت، وأنَّني لن أحمل القلم مرَّة أخرى إلَّا إذا دفعني إلى ذلك هجمات خصوم ذوي شأن، أو إذا أصبح من الضروري التصدِّي لاعتراضات غير متوقعة، أو أن أزيل خطأً ما.

فهل أنا أقرِّر ما ليس واقعًا؟

هل جئت قبل زمني؟

هل معاناة اليهود ليست على درجة كافية من الخطورة؟

سوف نرى.

إنَّ الأمر يتوقف على اليهود أنفسهم أن يبقى هذا الكتيب السياسي خيالًا سياسيًّا، فإذا كان هذا الجيل أغبى من أن يفهمه على حقيقته، فإنَّ جيلًا قادمًا أفضل وأكثر استنارة سينهض لفهمه.

إنَّ اليهود الَّذين يريدون الدولة اليهودية ستكون لهم، وسوف يستحقُّونها»[1].

(١) الدولة اليهودية لتيودور هرتسل صـ ٤٩ ـ ٥٣، ترجمه صديقنا الأستاذ محمد يوسف عدس، ومراجعة وتقديم صديقنا الدكتور عادل حسن غنيم، نشر مركز نصوص، ط ٢، ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

هذا ما كتبه «هرتسل» في مقدمة كتابه، ولم تكن الرؤية أمامه واضحة، ولا مكان الدولة المنشودة عنده قد تحدِّد، أهو الأرجنتين أم فلسطين...؟ وكان هناك معارضون لتوجهاته من كبار الشخصيات اليهودية وأثرياء اليهود، ولكن بعد أن انعقد المؤتمر الصهيوني الأوَّل بمدينة «بال» بسويسرا في (٢٩ أغسطس ١٨٩٧م) بدا المستقبل واضحًا أمام عينيه، وغدا يتحدَّث عن دولة اليهود وكأنَّها حقيقة ماثلة، وهذا ما نطقت به كلماته بعد المؤتمر حين قال: «لو طُلب منِّي تلخيص «مؤتمر بازل» في كلمة ـ وعليَّ أن أحرص على عدم التلفظ بها بصوتٍ عالٍ ـ لكانت هي: في بازل أقيمت أسس الدولة اليهودية! لو قلت ذلك بصوتٍ عالٍ لضحك الجميع منِّي. لكن ربَّما في خمس سنوات، وبالتأكيد في خمسين سنة، سيُسلِّم كل واحد بالأمر، إنَّ تأسيس دولة ليكمن في إرادة الشعب لإنشاء دولة، بل يكمن في إرادة فردٍ قويٍّ قوة كافية... الأرض فقط هي الأساس المادِّي...»[١].

وبعد خمسين سنة من مؤتمر «بازل»، وبالضبط خمسين سنة وبضعة أشهر قامت «الدولة اليهودية» وتحقق حلم «هرتسل» الكبير.

أَمِن حق اليهود وحدهم أن يحلموا، وليس من حقِّنا ـ نحن المسلمين ـ أن نحلم؟! وحُلْم اليهود كان مستحيلًا أو شبه مستحيل، أمَّا نحن فنحلم بشيء كان أمرًا واقعًا إلى ما قبل سبعين عامًا فقط.

إنَّ العاقل هو الَّذي يتعلَّم ولو من عدوه، وعلينا أن نتعلَّم الحُلْم والأمل والصبر والمصابرة من اليهود، حتَّى نحقِّق الأحلام، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحقُّ النَّاس بها.

(١) مقدمة أ. د. عادل حسن غنيم للدولة اليهودية صـ ٢٦.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

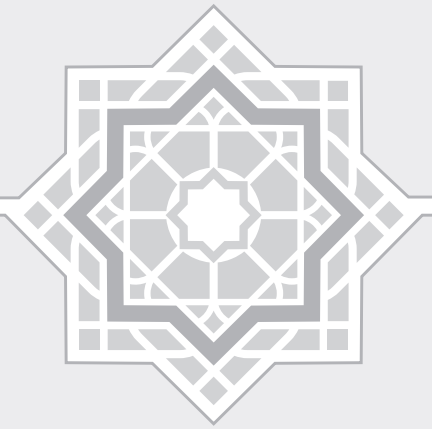

الفهارس العامة

غير مرخصة للطباعة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

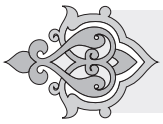

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾	١٢٨	١٢
﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾	١٣٨	٥٢
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾	١٤٣	٤، ١٥
﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾	٢١٣	١٢
سورة آل عمران		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾	١٠٠	٣٥
﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾	١٠٣	٤، ١٧
﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾	١١٠	٤، ١٢، ١٥، ٤٤
سورة النساء		
﴿ فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾	٣٥	٣٨
سورة المائدة		
﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ ﴾	٣	٢٥
﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾	٥١	٤٢

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأنعام		
﴿وَمَامِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾	٣٨	١١
﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾	٦٥	٣٥
﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾	١٥٣	٤١
سورة الأعراف		
﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ﴾	٨٦	٤٤
﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾	١٥٧	٤٨
﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾	١٥٨	١٢
سورة الأنفال		
﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾	٤٦	١٧
سورة هود		
﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾	١١٨، ١١٩	٤٨
سورة يوسف		
﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾	٧٦	٩٣
سورة الرعد		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾	١١	٧٤
سورة الحجر		
﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾	٩	٤٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأنبياء		
﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾	٩٢	٤، ١٥
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	١٠٧	١٣
سورة الحج		
﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾	٦٨، ٦٩	٤٨
سورة المؤمنون		
﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾	٥٢	٤، ١٥
سورة النور		
﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾	٣٥	٤٧
سورة الأحزاب		
﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾	٤	٩٤
﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾	٢١	٥٤
سورة الفتح		
﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾	٢٩	٣٥
سورة الحجرات		
﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾	٩	٩٣
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾	١٠	٣٤
﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾	١٣	٢٥
سورة الممتحنة		
﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾	٨، ٩	٤٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الجمعة		
﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾	١٠	٧٤
سورة القلم		
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	٤	٥٤

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

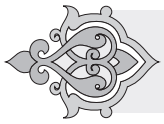

الحديث	رقم الصفحة
أ	
إذا بويع خليفتان، فاقتلوا الآخِرَ منهما	٣٧
ألا إنَّ العربيَّة اللسان، ألا إنَّ العربيَّة اللسان	٢٩
اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل	٥٥
إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء	٥٥
إنَّ الله لا يجمع أُمَّتي على ضلالة	١٦
إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجدِّد لها دينها	٥٢
إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدُكم عملًا أن يُتقنه	٥٥
إنْ قامت الساعة وفي يد أحدِكم فَسِيلة	٥٥
إنَّ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا	٥
إنَّما أنا رحمةٌ مُهداة	٥٣
إنَّما بعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق	٥٤
إنَّما بُعِثتم مُيَسِّرين، ولم تبعثوا مُعَسِّرين	٥٣
ت	
ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد	٥، ٣٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ف	
فُضِّلَتْ هذه الأُمَّة على سائر الأمم	١٦
ك	
كان خُلقه القرآن	٥٤
كلُّ أُمَّتي يدخلون الجنَّة إلَّا من أبى	١٦
كما تتداعى الأَكَلةُ على قصعتها». قالوا: أوَمِنْ قلَّة نحن يومئذٍ يا رسولَ الله؟	٤٥
ل	
لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضُكم رقابَ بعض	٣٥
لا تزال طائفة من أُمَّتي قائمين على الحقِّ	١٥
لولا أنَّ الكلاب أُمَّةٌ من الأمم لأمرت بقتلها	١١
م	
ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده	٥٥
مَثَلُ أُمَّتي كالمطر، لا يُدرى أوَّلُه خيرٌ أم آخره	١٥
المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته	٥، ٣٤
من لقي اللهَ وليس في عُنُقه بيعةٌ لإمام، مات مِيتَةً جاهليَّة	٣٨، ٨٧
المؤمن القويُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف... استعن بالله ولا تعجز	٥٥
المؤمن للمؤمن كالبنيانِ يشُدُّ بَعْضُه بعضًا	٣٤
و	
ولا تختلفوا؛ فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا	١٧

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ي	
يا أُصَيْل، دَعِ القلوبَ تَقِرُّ	٢٨
يجعل الله بأسَها بينَها	٣٥
يسعى بذمَّتهم أدناهم، ويجير عليه أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم	٣٦

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

❖ **من الدستور الإلٰهي للبشرية** **٤**

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** **٥**

• **مقدمة** **٧**

❖ **الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة لا وهم** **١١**

❖ **الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة بكلِّ معيار** **١٥**

هي حقيقة بمنطق الدِّين ١٥

هي حقيقة بمنطق التاريخ ١٦

هي حقيقة بمنطق الجغرافيا ١٧

هي حقيقة بمنطق الواقع ١٨

هي حقيقة بمنطق الآخرين ٢٠

منطق المصلحة والعصر ٢٢

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

❖ **أُمَّة واحدة ذات شعوب متعدِّدة ٢٥**

صلة العروبة بالإسلام ٢٧

كلمات مضيئة لحسن البنَّا ٢٧

لماذا حدثت الجفوة؟ ٣٠

خطر الصراع الجديد ٣٠

❖ **لماذا لا يَتَّحِد المسلمون؟ ٣٣**

ملاك الوحدة أمور ثلاثة ٣٦

الأمر الأوَّل: وحدة دار الإسلام ٣٦

والأمر الثاني: وَحْدة المرجعيَّة العليا ٣٧

والأمر الثالث: وَحْدة القيادة المركزيَّة ٣٧

خسارة الأُمَّة بهدم قلعة الخلافة ٣٩

الحوائل دون الوحدة ٤٠

❖ **مقوِّمات القوَّة في الأُمَّة ٤٤**

القوَّة العدديَّة ٤٤

القوة المادِّيَّة ٤٦

القوة الرُّوحيَّة ٤٧

❖ **شروط ضروريَّة لنجاح الأُمَّة ٥٠**

١ ـ تحديد الهُويَّة وأساس الانتماء ٥٠

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

٢ ـ تحديد المرجعيَّة العليا ٥٠
٣ ـ ضرورة الاجتهاد والتجديد ٥١
٤ ـ تجسيد الإسلام في أخلاق وأعمال ٥٤

❖ **خاتمـــة** **٥٧**

❖ **بيني وبين الأستاذ سيِّد ياسين التعقيب الأوَّل للأستاذ سيِّد ياسين** **٥٩**

الحركة الإسلاميَّة بين حُلْم الفقيه وتحليل المؤرخ ٥٩
الأُمَّة الإسلاميَّة بين الحقيقة والوهم ٦١
تحليل المؤرخ ٦٥

❖ **رَدِّي على التعقيب الأوَّل حول مقال «الحركة الإسلاميَّة بين حُلم الفقيه وتحليل المؤرخ»** **٦٨**

❖ **التعقيب الثاني لسيِّد ياسين** **٧٧**

الإمبراطوريَّة والخليفة ٧٧
عناصر الحكومة الدينيَّة ٧٨
اليوتوبيا والعمل السياسي ٨٢
الحلم وصدمة الواقع ٨٤
ردٌّ على مقال «الإمبراطوريَّة والخليفة» **٨٦**

نسخة خاصة غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

- **خاتمـــة** ٩٥
- **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** ١٠٣
- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** ١٠٧
- **فهرس الموضوعات** ١١١

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com